بَنُو عَشَرَة السَّلَاويين

فِي شِعْرِ مُعَاصِرِيْهِم

دِرَاسَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ

إعداد

د. أحمد محمد علي الجربوع

أستاذ الأدب والنقد المساعد

بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

بجامعة جازان

بنو عشرة السلاويين في عيون معاصريهم ـ دراسة تحليلية

أحمد محمد الجربوع
كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة جازان – المملكة العربية السعودية.
البريد الإلكتروني: ahmad83mg@gmail.com

الملخص:

خَصَّ هذا البحث أسرة مغربية بالدراسة هم بنو عَشَرَةَ الذين عاشوا في القرن الخامس ومطلع القرن السادس بسلا في المغرب، في ظل دولة المرابطين. واقتصرت على بيت واحد من بيوتاتها وهو بيت علي بن القاسم، فهدفت هذه الدراسة إلى تتبع كل ما قيل في كبير هذه الأسرة علي بن القاسم، وأبنائه أحمد، والحسن، ويحيى ويوسف، من شعر ودراسته دراسة تحليلية تبرز مكانة الأسرة الأدبية في تلك الحقبة الزمنية، وذلك من خلال جمع الشعر الذي قيل فيهم، وتصنيفه حسب الأغراض الشعرية التي نظم بها الشعراء الذين اتصلوا بهم، أو وجهوا الشعر لهم، فوجدنا مدحًا، وعتابًا، وتهانيًا...، ثم خَصَّصْتُ مبحثًا منفردًا لدراسة مقدمات قصائد المدح، إذ رأيت حملها دلالات توحي ببراعة الشعراء الذين اتصلوا بهم، وفَهْمِ هذه الأسرة لأصول الفن الشعري الذي يتيح للشاعر قول ما يشاء دون حرج يبديه لأفراد أسرة بني عشرة، كونهم من الفقهاء المشتغلين في القضاء .

وقد قدمت لهذا البحث بحديث عن نسب هذه الأسرة، واتصال الشعراء بهم، وألممت بالحديث عن حاضرتهم سلا منذ أقدم عصورها إلى مطلع القرن السادس، وهو القرن الذي زال فيه سلطان هذه الأسرة، إذ أدبرت عنهم الدنيا بعد سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين، فغاب حضورهم عن المشهد الاجتماعي والثقافي والسياسي، وقد كانوا قبل ذلك أسيادَ مدينة سلا المغربية، ورجالهَا البارزين.

الكلمات المفتاحية: بنو عشرة، السلاويين، دراسة، تحليلية، معاصريهم

Banu Ashra al-Salawiyyin in the eyes of their contemporaries, an analytical study

Ahmed Mohammed Al-Jarbou
College of Arts and Humanities - Jazan University - Kingdom of Saudi Arabia.
Email: ahmad83mg@gmail.com

Summary:
This research singled out the study of a Moroccan family, the Banu Ashra who lived in the fifth and early sixth centuries in Sale in Morocco, under the Almoravid state. And it was confined to one of its houses, which is the house of Ali bin Al-Qasim, so this study aimed to track all that was said about the head of this family, Ali bin Al-Qasim, and his sons Ahmed, Al-Hassan, Yahya and Youssef, from poetry and an analytical study that highlights the status of the literary family in that time period. This is done by collecting the poetry that was said about them, and classifying it according to the poetic purposes for which it was organized The poets who contacted them, or directed poetry to them, and we found praise, admonition, and congratulations... Then I dedicated a single section to study the introductions of praise poems, as I saw that they carried indications suggesting the ingenuity of the poets with whom they contacted, and the understanding of this family of the origins of poetic art that allows the poet to say Whatever he wants without embarrassment, he shows it to the members of the Bani Ushra family, being among the jurists working in the judiciary.
For this research, I presented a talk about the lineage of this family, and the poets' contact with them. About the social, cultural and political scene, and before that they were the masters of the Moroccan city of Sale, and its prominent men.

Keywords: Banu Ushra, the Salawis, study, analytical, their contemporaries

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه الكرام الأطهار ما قصد سيل قرار، وطرد ليل نهار، وبعد:

فجلي لأهل الشعر ومحبيه، أنه وسيلة من وسائل تخليد الذكر، وسبيله سبيل ديمومة البقاء والاستمرار حتى بعد الموت والفناء؛ إذ كنا ولا نزال نتعرف على الشخصيات العربية من خلاله، فنعرف منه النسبَ والخُلُقَ و الخَلْقَ، والفضائل، والدين، حتى الإنجازات الشخصية يظهرها لنا الشعر، ويصفها لنا وكأننا أمامها، ويزيد من إيضاح معالم الشخوص، فإذا هي ماثلة أمامنا، يحكي جميع تفاصيلها الشعر منذ أقدم العصور وإلى يومنا الحاضر.

ولا ريب في أن الشعر دون غيره من فنون الأدب ألصق بالنفس العربية؛ لذا حرص أهل الجاه والسلطان عبر الأزمان أن يستدنوا الشعراء ويقربوهم، وكان الشاعر بدوره يقرب نفسه، ويتجشم الأهوال والعناء للوصول إلى شريف يمدحه، فينال عطاءَه وصلته، ويحظى بملازمته ومنادمته، فيسفر هذا الاتصال الأدبي عن تخليد شخصية ما، وصله سنية يأخذها شاعر، فإن كنا نتعجب مما يتردد في كتب الأدب القديمة عن حجم الصلات والأموال التي تُغْدَقُ على الشعراء، فحري بنا أن ننظر فيما سبقها، أو نسأل أنفسنا لماذا استحق هذا الشاعر أو ذاك هذه الصلة؟ سنجد الإجابة على لسان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– عندما قال لولد هَرِم بن سنان عن زهير بن أبي سُلمى: «ذهب ما أعطيتموه، وبقي ما أعطاكم» فالخليفة عمر عربي قح يعرف القيمة المعنوية للشعر التي لا

يعادلها مال، إنه خلود الذكر وبقاء السيرة، فها نحن بعد أربعة عشر قرنًا نعرف هَرِمَ بن سنان من شعر زهير، ولا نعرف أبناءه الذين حدثهم عمر بن الخطاب.

وحسبك من هذا كله أننا لو أردنا تقصي الأسر والأفراد الذين خلدهم الشعر لم نستطع لكثرتهم، ولكننا نسهم في هذا المضمار بهذا البحث الذي نقدمه للقارئ الكريم عن أسرة مغربية كثر حولها الشعر والشعراء، بل لا نخطئ لو قلنا إن الشعر الذي قيل فيهم ونقلته مصادر الأدب والتاريخ والتراجم، أكثر من الأحداث التي ذكرت لهم في المصادر ذاتها، بل هو أطول من تراجم بعض أفرادها؛ لذا نسلط الضوء في هذا البحث على أسرة بني عشرة السلاويين، تلك الأسرة المغربية الذائعة الصيت، ونقف في دراستهم عند بيت أحد كبرائهم وهو علي بن القاسم بن محمد بن موسى بن عيسى بن عشرة، وأبنائه: أحمد، والحسن، ويوسف، ويحيى. هذا التحديد لهذا البيت من بيوت الأسرة بعينه يأتي لسببين، هما:

- أن كل الشعر الذي قيل في بني عشرة قيل في هذه الأسرة فقط.
- أن هذا البيت من بيوت بني عشرة هو الوحيد الذي له سيرة تاريخية واضحة، وإن كانت شحيحة في المصادر.

إن دوافع دراسة هذا البيت العشري أدبيًّا كثيرة، لعل أهمها أني لم أجد من أفردهم بدراسة تتناول ما قيل فيهم من شعر، سوى تلك الإشارات من الدكتور محمد بن شريفة – رحمه الله–، لكنها عابرة لا تروي غليل الدارسين؛ حيث بسط الحديث عنهم تاريخيًّا وحضاريًّا في بحثه: «أسرة بني عشرة: تطورها التاريخي ودورها الحضاري» وفي دراسة أخرى حول هذه الأسرة وعنوانها: «أسرة بني عشرة واستقرارهم بسلا» لم يتطرق الباحث

فيها أبدًا للحديث عن الشعر الذي قيل فيهم، وإنما اكتفى بالحديث عنهم تاريخيًّا؛ لذا تأتي هذه الدراسة لتكمل ما أقامه السابقون من صرح بني عشرة أسياد سلا، وتظهرهم فنيًّا من خلال ما قيل فيهم من شعر؛ حيث أخذوا حظهم من البحث تاريخيًّا وحضاريًّا ولم يأخذوه أدبيًّا.

ولكي تتضح لنا هذه الأسرة من خلال الشعر الذي قيل فيها – وهو الهدف من هذه الدراسة– اعتمدنا على المنهج التحليلي الذي يحلل الشعر ويستخلص الأسس والأفكار والنتائج، وهو من أنسب المناهج لمثل هذه الدراسات التي تسعى إلى إظهار ما خفي من خصائص الشخصيات، فتكشف عن مميزاتها وسماتها، وترسم صورة واضحة لها.

هذا والله أعلى وأعلم،،،

نسب بني عشرة:

أعيا نسب هذه الأسرة الباحثين والدارسين قبلنا؛ إذ لم يصلوا في حديثهم عنه إلى شيء مهم ولا دقيق. ولهم في ذلك عذر تجليه قلة المصادر التي تحدثت عن هذه الأسرة؛ إذ لم تسعفهم بغزارة المعلومات، ولم تسهم في تقصي نسبهم وتدوينه في صفحات تراجم رجال هذه الأسرة العشرية. فكل ما وصلنا عنهم تراجم بعض الأفراد كزعيم هذه الأسرة علي بن القاسم(١)، وابنه أبي العباس أحمد(٢)، ثم تبدأ المصادر ببخلها علينا، فتتجنب السرد والإطالة، وتكتفي باللمحة والإشارة، حتى أن بعض أفراد هذا البيت قيل فيه شعر أكثر من ترجمته كيوسف ويحيى ابني علي بن القاسم. والأدهى أن جدهم عشرة الذي ينسبون إليه ما زاد المؤرخون في حديثهم عنه على معلومتين؛ الأولى: ما ذكره جعفر بن أحمد الناصري نقلًا عن أبي بكر بن اللبانة، صاحب كتاب "سقيط الدرر، ولقيط الزهر" من قوله: «إن عشرة جد الأسرة العشرية السلاوية، كان أميرًا لخلفاء بني أمية بالمغرب

---

(١) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، للضبي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، طبعة دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م، ج٢، ص٥٥٥.

(٢) الإتحاف الوجيز تاريخ العدوتين، محمد بن علي الدَّكَالي، تحقيق: مصطفى بو شعراء، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، المغرب، ط٢، ١٩٩٦م، ص١٠٠.

الأوسط»[١]، وهو ما يفسره قول الضبي في بغية الملتمس عند ترجمته لعلي بن القاسم: «ورد جده عشرة على هشام المؤيد مجاهدًا في جملة من أمراء المغرب، وكان حاجبه يقدمه، والدهر يؤخره»[٢]، أما المعلومة الأخرى فهي قول الدَّكَالي في كتابه "الاستبصار في عجائب الأمصار": «وقد كان اتخذ أرباب البلد العشريون وأولياؤهم مدينة بالعدوة الشرقية، وهي المعروفة الآن بسلا، فيها ديارهم بحومة الجامع»[٣]، وهو ما يفسره قول جعفر الناصري: «إن أمير قرطبة، أذن للرئيس عشرة أن ينزل بإزاء شالة فنزل، ومعه ثلاثة من أولاده ونسائه وخدمه وحشمه»[٤]. هذا كل ما نقلته المصادر عن جد الأسرة وكبيرها، ولا نجد بعدها أي ذكر له، ولا لأولاده من بعده، إلى أن ظهر حفيده علي بن القاسم على مسرح الأحداث في سلا.

بدأ المؤرخون وكتاب التراجم والسير البحث في نسب هذه الأسرة، بعد ذيوع صيت علي فيها، وقبل ذلك لم تكن عنايتهم تتوجه إليه، ودليل ذلك أن جدهم كان أميرًا، واتصل بالخليفة المرواني هشام بن الحكم، ومع ذلك لم يُلْتَفَت إلى نسبه، وظل مكتومًا إلى أن بعثه ابن بسام في الذخيرة في

---

(١) سلا ورباط الفتح: أسطولهما وقرصنتهما الجهادية، جعفر بن أحمد الناصري، تحقيق: أحمد بن جعفر الناصري، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، د.ط، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ج١، ص٨٣.

(٢) بغية الملتمس، ج٢، ص٥٥٥.

(٣) الاستبصار في عجائب الأمصار، لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس، نشر وتعليق: د. سعد زغلول عبد الحميد، طبعة دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، د.ط، ١٩٨٦م، ص١٤٠.

(٤) سلا ورباط الفتح، ج١، ص٨٥.

معرض حديثه عن الشاعر ابن سوار الأُشبوني الذي اتصل بعلي بن القاسم وأبنائه من بعده، فقال: «بلغني أن جدهم الأكبر أحمد بن المدبر»[١]، وابن بسام عاش في قرن كان لهذه الأسرة حضورها، وهو القرن السادس الذي أدركه علي بن القاسم وأبناؤه، فابن بسام يعد معاصرًا لهم، ونقله لمثل هذا الخبر في حياة بعض أفراد الأسرة من دون اعتراضهم عليه، أو رده -إن كان غير صحيح- دليل صدقه وأصالته؛ لذا تابع ابن بسام من تلاه من المصنفين كابن الأبار في إعتاب الكتاب[٢]، وابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة[٣]، وابن إبراهيم في الإعلام[٤]، في نسبتهم إلى أحمد بن المدبر[٥]، وعن كل هؤلاء أخذ من درس هذه الأسرة تاريخيًّا وحضاريًّا

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لعلي بن بسام الشنتريني، تحقيق: د. إحسان عباس، طبعة دار الثقافة، بيروت، د.ط، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ج٢، ص٨١٢.

(٢) إعتاب الكتاب، لابن الأبار، حققه وعلق عليه وقدم له: د. صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط١، ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م، ص٢٢٤.

(٣) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، لمحمد بن عبد الملك المراكشي، حققه وعلق عليه: د. إحسان عباس، ود. محمد بن شريفة، ود. بشار عواد معروف، طبعة دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ٢٠١٢م، ج٥، ص١٥.

(٤) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، للعباس بن إبراهيم السملالي، راجعه: عبد الوهاب بن منصور، طبعة المطبعة الملكية، الرباط، ط٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ج٩، ص١٥٤.

(٥) ينظر في ترجمته: تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، لابن عساكر، دراسة وتحقيق: عمر بن غرامة العمروي، طبعة دار الفكر، بيروت، د.ط، ١٤١٥ه - ١٩٩٥م، ج٥، ص٣٩٠ وما=

نسبهم، ولم يزيدوا عليه شيئًا، بل زاد الإبهام عندهم – لشح أخبارهم في المصادر– فلم يهتدوا إلى الكيفية التي تحول بها أهل هذا البيت وهم من عقب ابن المدبر من المشرق إلى المغرب، وصاروا مغاربة بعد أن كانوا مشارقة.

ولعل أفضل تعليل نجده لهذا التحول ما قاله: جعفر بن أحمد الناصري؛ حيث أرجع هجرة أفراد هذه الأسرة إلى المغرب الأوسط إلى عوامل متعددة، وهي[1]:

– فرارهم من أحمد بن طولون والي مصر، بعد نكبته لأبيهم.

– تحولهم عن مصر إلى المغرب اختيارًا؛ حيث لم يبقَ لهم بها رياسة ولا ذكر.

– قد يكون دخولهم إلى إفريقية مجاهدين، أو بغرض التجارة.

– من المحتمل اشتراكهم في ثورة العباس بن أحمد بن طولون على أبيه في إفريقية سنة ٢٦٥هـ، ومنها تسربوا إلى المغرب الأوسط، فاستقروا به إلى أن كان منهم الأمير عشرة.

ولا يخفى أن كثرة هذه الاستنتاجات دليل على الفجوة في نسبهم، فلا دلالة أكيدة على صلتهم بأحمد بن المدبر، إلا ما ذكره ابن بسام عن ذلك،

=بعدها، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، د.ط، ١٩٧٢م، ج٧، ص٥٦، وفوات الوفيات والذيل عليها، لمحمد بن شاكر الكتبي، تحقيق: د. إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٧٣م، ج١، ص١٣٣.

(١) سلا ورباط الفتح، ج١، ص٧١ وما بعدها.

ولا دليل على نزوح بعض أفراد الأسرة إلى المغرب إلا هذه الاستنتاجات.

نجد أنفسنا بعد ذلك مجبرين على قبول الطرح الذي مؤداه كون هذه الأسرة العشرية منحدرة من البيت المدبري الفارسي، الذي ينتمي إليه جدهم الأعلى أحمد بن المدبر، والذي وزر للمتوكل العباسي وتنقل في الأمصار الإسلامية، متبوءًا أرفع المناصب، فصار على خراج الشام، ثم مصر إلى أن وليها ابن طولون، فساءت علاقتهما ببعض، وأخذ كل منهما يكيد لصحابه عند الخليفة العباسي، وعندما سنحت الفرصة لابن طولون سجن أحمد بن المدبر إلى أن مات في سجنه سنة (٢٧٠ ه)[١].

ومع انتقاض أمر كبير هذه الأسرة الفارسية في مصر، وأفول نجمها في الحياة السياسية والإدارية في العصر العباسي، تشتت أفرادها، فمنهم من شَرَّقَ، ومنهم من غَرَّبَ، لكن من غَرَّبَ منهم لم يكن معروفًا بين الناس، فيذكره المؤرخون وأهل التراجم، فخفى عليهم نسبه، وظل كذلك إلى أن اتصل جدهم عشرة بأمراء الأندلس الأمويين في القرن الرابع، فبدأ ذكر هذه الأسرة يعود إلى المصنفات والكتب حتى بزغ نجم علي بن القاسم وأولاده، فَرُبِطَ ذلك النسب القديم بهذا الحضور الجديد لهذه الأسرة العشرية، واستمر إلى يومنا هذا.

لقد وضع بعض الدارسين في العصر الحديث شجرة لنسب هذه الأسرة

---

(١) تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، لعبد الرحمن بن خلدون، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: الأستاذ: خليل شحادة، طبعة دار الفكر، بيروت، د.ط، ١٤٢١ه - ٢٠٠٠م، ج٤، ص١٨٠.

على سبيل التقريب في الشكل الآتي[1]:

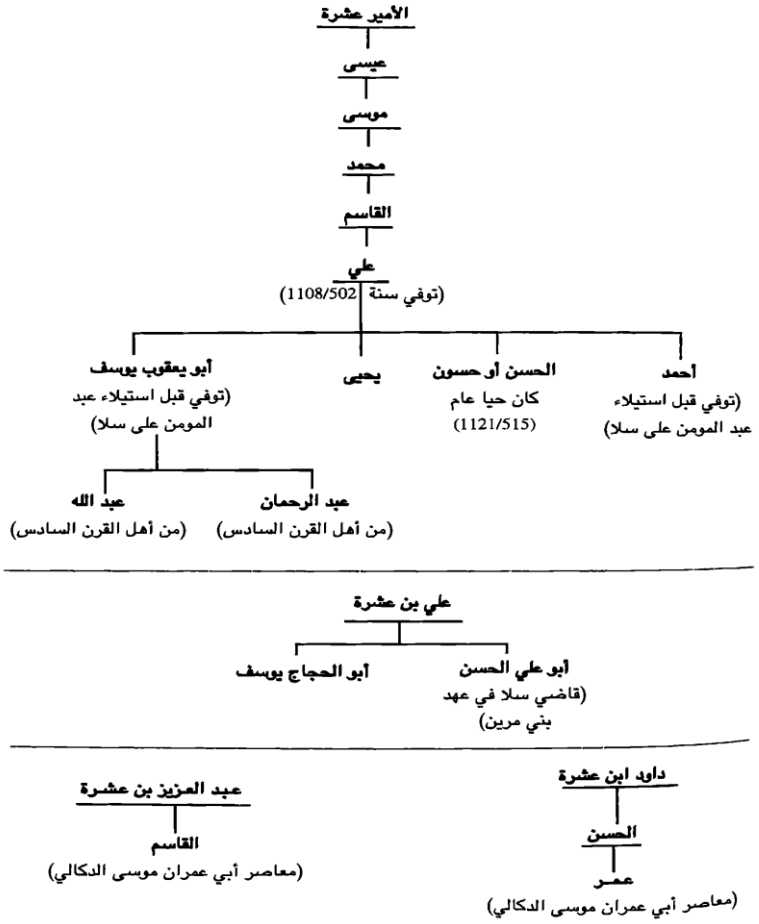

(١) سلا و رباط الفتح، ج١، ص٩٧، وأسرة بني عشرة: تطورها التاريخي ودورها الحضاري، مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية، جامعة تطوان، العدد العاشر، ١٩٦٥م، ص٢٠٩.

وبتأملنا الأسماء الواردة في هذا النسب نجد أن ما بين الأمير عشرة وابن حفيد حفيده الذي هو علي لا نعرف عنهم سوى الاسم، والجيل الذي يلي أولاد علي من بني عشرة أكثرهم عاش في القرن السابع، ولا حظَّ لهم من رئاسة ولا تقديم عند أمراء المغرب كما كان علي وأبناؤه، لا سيما في دولة اللمتونين المرابطية، مما دعا الدكتور محمد بن شريفة إلى قوله: «ويبدو أن تخلي الدولة الجديدة عن بني عشرة وإعراضها عنهم –بعدما كان لهم من جاه وحظوة في الدولة السابقة– كان من نتائجه أن انصرف بعضهم إلى حياة الزهد والعزوف عن الدنيا، ومعاشرة أهل التصوف»(١). وهو ما يظهر ذيوع أسماء بعض أفراد هذه الأسرة في كتب التصوف من الأجيال التي تلت ولد علي كعبد الله بن يوسف بن علي بن عشرة(٢)، وعمر بن الحسن(٣)، والقاسم بن عبد العزيز بن عشرة(٤)، فالبيت الذي جعلناه موضع الدراسة من أسرة بني عشرة هو صاحب السؤدد من بيوتاتها، وإليه كان يقصد الشعراء بشعرهم، فلا غرابة أن يكون محط الدرس ورجالاته أهل رئاسة وممدوحين، وأرباب كرم مشهورين.

---

(١) أسرة بني عشرة: تطورها التاريخي ودورها الحضاري، ص٢٠٥.

(٢) التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، تحقيق: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م، ص٢٠٢.

(٣) السابق، ص٢٠٦.

(٤) السابق، ص٢٠٧.

وفي نسبهم أيضًا يسترعي انتباه الدكتور محمد بن شريفة قول عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة في إحدى نسخه المخطوطة أن المراكشي نسب عليًا بن القاسم إلى فزارة(١)، وهو ما أنكره ابن شريفة، وقطع بعدم صلتهم بهذه القبيلة، ورجح أن تكون كلمة "الفزاري" التي وردت عند المراكشي محرفة من كلمة "فنزاري" نسبة إلى فنزارة جماعة من الناس كانت تقيم بين سلا ومكناس، ثم انتقلت من هذا المكان واستقرت بسلا منذ أيام المرابطين، لكنه لم يجزم بصحة نسبتهم إلى فنزارة(٢).

حتى هذه الملاحظة لم تبل عطشنا من نسبهم، وتعيدنا إلى أرجح الأقوال فيهم وهو قول ابن بسام بأنهم ينحدرون من نسب أحمد بن المدبر.

أما تسميتهم ببني عشرة؛ فَتُنْسَجُ حولها رواية أسطورية مفادها ما ذكره محمد بن أحمد العثماني في شفاء الغليل في حل مقفل خليل عن ابن عرفة، حيث قال: «وسمعت من غير واحد ممن يوثق به أن بني العشرة الذين بنى والدهم مدينة سلا بأرض المغرب كان سبب بنائه إياها أنه ولد له عشرة ذكور، من حمل واحد من امرأة له، فجعلهم في مائدة ورفعهم إلى أمير المؤمنين يعقوب المنصور، فأعطى كل واحد منهم ألف دينار ذهبًا،

---

(١) في الذيل والتكملة المطبوع أثبت محققوه، ومنهم الدكتور محمد بن شريفة لفظة الفنزاري في نسب علي بن القاسم، ج٥، ص١٥، وأحالوا في الهامش على بحث ابن شريفة، وكان الأجدى أن يثبتوا هذا الرأي في تحقيقهم للكتاب، وهذا صلب عمل المحققين.

(٢) أسرة بني عشرة: تطورها التاريخي ودورها الحضاري، ص١٧٨.

وأقطع أباهم أرضًا بوادي سلا، فبنى بها مدينة تعرف الآن ببني عشرة»[١]. ولا يخفى ما في هذا الخبر من زيف؛ حيث يعود بناء مدينة سلا إلى جدهم عشرة الذي كان في زمن حكم الأمويين للأندلس قبل قيام دولة المرابطين التي منها يعقوب المنصور حفيد يوسف بن تاشفين، وقد أنكره ابن غازي نقلًا عن ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة من قوله: «وكأنه لم يقف على ما في رسم الحسن من قسم الغرباء من تكملة ابن عبد الملك؛ إذ قال: تقول بعض الأغمار: إن سبب هذه الشهرة أنهم كانوا إخوة توائم، فسئل عن ذلك أحد أعقابهم فقال: جعلوا أمنا خنزيرة تلد عشرة – حسيبهم الله»[٢]. وهو ما نقله أيضًا جعفر الناصري[٣]، والدكتور محمد بن شريفة[٤]، وأكدا على أنَّ التسمية بالعدد شائعة في كتب الأعلام الأندلسية[٥] والمغربية[٦].

وعلى يكون الغموض قد اكتنف نسبهم، ووصولهم إلى المغرب واستقرارهم به، وسبب تسميتهم ببني عشرة، وإن كان من شيء مؤكد

---

(١) مختصر خليل، للشيخ خليل بن إسحاق الجندي، ومعه شفاء الغليل في حل مقفل خليل، لمحمد بن أحمد بن غازي العثماني، دراسة وتحقيق: د. أحمد عبد الكريم نجيب، طبعة مركز نجيبويه، القاهرة، ط١، ١٤٢٩ه – ٢٠٠٨م، ج٢، ص١١٧٣.

(٢) مختصر خليل، ج٢، ص١١٧٣.

(٣) سلا ورباط الفتح: أسطولهما وقرصنتهما الجهادية، ج١، ص٢٨.

(٤) أسرة بني عشرة: تطورها التاريخي ودورها الحضاري، ص١٧٩، ص١٨٠.

(٥) سلا ورباط الفتح: أسطولهما وقرصنتهما الجهادية، ج١، ص٢٨.

(٦) أسرة بني عشرة: تطورها التاريخي ودورها الحضاري، ص١٨٠.

حول هذه الأسرة محط دراستنا، فإنه معرفتهم أو تلقيبهم ببني القاسم[١] نسبة إلى جدهم الأقرب والد علي وجد أبنائه، والذي يبدو أن في تسميتهم ببني القاسم تميزًا لهم عن غيرهم؛ حيث إن لقب عشرة أطلق على كثير من الأفراد والأسر في المغرب والأندلس[٢].

وبعد، فإنه لا سبيل إلى بسط الحديث وإكثاره عن نسب هذه الأسرة؛ لأن كل حديث عنهم في المصادر القديمة، والمراجع الحديثة قد أتينا عليه، وعرضنا له في هذه الوريقات القليلة، ولعل في هذا دليلًا على شح الأخبار والروايات عنهم، وقلة ما نقل إلينا منها.

سلا عبر التاريخ:

سلا مدينة مغربية قائمة إلى اليوم، لا تبعد كثيرًا عن عاصمة المملكة المغربية الرباط، سوى بضع كيلو مترات، لكنها وإن كانت إلى اليوم قائمة معمورة، فإن تاريخ وجودها على خارطة العالم قديم جدًا؛ حيث يعيدنا التاريخ إلى ما قبل الميلاد في نشأة هذه المدينة التي يصفها صاحب الاستبصار بقوله: «وهي مدينة أزلية فيها آثار للأول»[٣]. دلالة على قدمها، وبُعْدِ العهد على إنشائها، ويسميها شلَّة بالأعجمية[٤]، وغيره من

(١) أسرة بني عشرة: تطورها التاريخي ودورها الحضاري، ص١٧٩.
(٢) سلا ورباط الفتح: أسطولهما وقرصنتهما الجهادية، ج١، ص٢٨.
(٣) الاستبصار في عجائب الأمصار، ص١٤٠.
(٤) السابق، ص١٤٠.

مؤرخي العصر الحديث يسميها "شالة"[١] وهو اسم دارج عند كثير من البلدانيين ومؤرخي الدول، لكنه يضعنا أمام إشكالية لا بد من نقاشها، ونحن بصدد الحديث عن تاريخ هذه المدينة، وهي ازدواجية استخدام الاسمين "سلا" و"شالة" حتى ليفهم منه أنهما بلدتان لا بلدة واحدة.

ولو عدنا لجد الأسرة العشرية الأمير عشرة وأخباره، لوجدنا أن هشام المؤيد الخليفة المرواني بالأندلس أقطعه أرضًا وسمح له بنزولها مع أهل بيته، ولكنها لم تكن شالة ولم تكن سلا، وإنما أرض بإزاء شالة كما يقول الناصري[٢]، فما علاقة أحفاده بمدينة سلا وكيف أصبحوا سادة فيها؟ حتى نسبها بعض المؤرخين لهم كصاحب الاستبصار الذي ظهر عنده ازدواجية استخدام الاسمين لهذه البقعة الجغرافية على قرب عهده ببني عشرة؛ حيث إنه من علماء القرن السادس الهجري فيقول مفتتحًا حديثه عن سلا: «مدينة سلا: اسمها بالعجمي شلَّة؛ وهي مدينة أزلية فيها آثار للأول. وهي معروفة بضفة الوادي، متصلة بالعمارة التي أحدثها الخليفة الإمام أمير المؤمنين وآباؤه المكرمون. وقد كان اتخذ أرباب البلد العشريون وأولياؤهم مدينة بالعدوة الشرقية وهي المعروفة الآن بسلا، فيها ديارهم بحومة الجامع»[٣]. فلو كانت سلا هي شلَّة كما زعم المصنف، لما احتاج أرباب البلد العشريون إلى بناء مدينة بالعدوة الشرقية، وهذا ما يؤكده لسان

---

(١) مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح، لأبي عبد الله محمد بوجندار، طبعة مطبعة الأمنية، الرباط، ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، ص٢٩.

(٢) سلا ورباط الفتح: أسطولهما وقرصنتهما الجهادية، ج١، ص١٨٥.

(٣) الاستبصار في عجائب الأمصار، ص١١٠.

الدين بن الخطيب الشاعر والأديب الأندلسي الذي أقام بالمغرب برهة من الزمن في قصيدة طويلة أرسلها لأهله وولده وهم مقيمون "بسلا"؛ حيث يقول فيها:

يَا نَسِيْمَ الرِّيْحِ إِنْ جِئْتَ الحِمَى ... بَعْدَمَا طَبَّقَ غَيْمٌ وَارتَفَعْ

وَتَلوَّمْتَ بِأَكْنَافِ سَلَا ... تَرْفَعُ الدَّوْحَ قَلِيْلًا وَتَضَعْ

إلى أن قال:

وَسَقَى شَلَّةَ عَهْدٌ مُغْدقٌ ... إِنْ هَمَى في الرَّبْعِ مِنْهَا وَهَعْ

وَرِبَاطُ الفَتْحِ يَا حَيَّ الحَيَا ... مَا بَنَى المَنْصُورُ فِيْهِ وَاخرَعْ[1]

ولعل في شعر لسان الدين ما يؤكد أن سلا ليست شلَّة، مما يوثق كلام صاحب الاستبصار، فما تكون سلا التي تَزَعَّمَهَا بنو عشرة؟

لنجيب عن هذا التساؤل نضع أمامنا احتمالين، هما:

- أن تكون شَلَّة هي سلا وحُرِّفَ اسمها من الأعجمية إلى العربية وهو ما ورد في بعض الدراسات الحديثة التي تناولت سلا[2].
- أن تكون سلا جزءًا من شلَّة، وهذا ما نرجحه؛ نظرًا لتطاول الأزمان وتعاقب الدول عليها، فهي بين عمار وخراب نتيجة

---

(١) نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، للسان الدين بن الخطيب، تقديم وتحقيق: د. السعدية فاغية، طبعة مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٩م، ج٣، ص٢٢٧.

(٢) مدينة سلا في العصر الإسلامي– دراسة في التاريخ السياسي الحضاري، للدكتور حمدي عبد المنعم محمد حسين، طبعة مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ط، ١٩٩٣م، ص٣ وما بعدها.

الحروب والصراعات من قبل الميلاد، فلا شك في أن توسع شلة وانكماشها وتفتتها إلى قرى ومدن صغيرة محصلة طبيعية للنشاط الحربي الدائر بين الشعوب التي خضعت لها تلك المنطقة. ولعل هذا ما يفسر ازدواجية التسمية التي أشرنا إليها آنفًا، فعند استعمال شلَّة فإن المراد منه الكل الجغرافي لهذه المنطقة، وعند استعمال سلا فإن المراد قرية سلا أو المدينة الواقعة في حيز شلَّة.

وأما الاحتمال الأول، وإن كان له من يؤيده، ويأخذ به، فإنه متعارض مع ما نجده من استعمال المؤرخين المعاصرين لشلَّة وسلا، ولو كانت واحدة لبينوا ذلك في حديثهم(١).

وقد اختلف مؤرخو المغرب في العصر الحديث في تحديد موضع هذه المدينة، مما يرجح ما قلناه عن تبعيتها لشالة القديمة، وكونها جزءًا من كل جغرافي يسمى شالة. وقد التبس تاريخ تأسيسها كونها واقعة على مصب نهر أبي رقراق، ووقوع شالة القديمة كذلك عليه، واختلط الأمر في تحديد أيهما أسبق وجودًا، بل زعم بعض المؤرخين

---

(١) ينظر في ذلك: مقدمة الفتح وتاريخ رباط الفتح، ص٢٩ وما بعدها، ووصف إفريقيا، للحسن بن محمد الوزان الفاسي، ترجمة: محمد حجي، ومحمد الأخضر، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ج١، ص٢٠٣، والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، طبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، د.ط، ١٤١٨ه – ١٩٩٧م، ج١، ص١٢٥، ص٢٢٨.

أنها قديمة اندثرت، ثم أعيد تجديدها مع تغيير موضعها[١].

أما سيادة بني عشرة فيها، وسكنهم لها، فهو غامض كما غمض من شأنهم الكثير، وإن كنت أرجح أن سيادتهم فيها جاءتهم من جدهم الأمير عشرة، إذ قد يكون أول من سكنها منهم، وقد تكون مكانتهم الدينية وقرب كبيرهم علي بن القاسم من سلطان المرابطين خولتهم هذا الأمر فيها.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه البقعة الجغرافية كانت في الأصل قرية بربرية صغيرة يرجع بناؤها إلى حوالي عام ١٥٠٠ ق.م، وقد أنشأها القرطاجيون متجرًا عرف في عهدهم باسم سلفيس (Silves) ثم احتلها الرومان في مطلع القرن الأول الميلادي وسموها سلا – كولونيا ... وقد استمرت سلا مستعمرة رومانية مدة تقرب من الخمسمائة عام بلغت خلالها شأوًا بعيدًا من الازدهار، ثم تضاءلت أهميتها عند ظهور الوندال، ولكنها لم تلبث أن استعادت مجدها على طول العهد البيزنطي، وظلت خاضعة للحكم البيزنطي إلى أن قام القائد عقبة بن نافع الفهري بفتحها عام ٦٢هـ[٢].

وفي العصر الإسلامي أجمع المؤرخون على أن بداية إرهاصات فتح المسلمين لبلاد المغرب تم في وقت مبكر من هجرة الرسول –صلى الله عليه وسلم–، وتحديدًا في خلافة عمر بن الخطاب سنة ٢٠ه؛ حيث مُهِّد فيها الطريق بفتح بُرْقَة وطرابلس من بلاد إفريقية على يد عمرو بن

---

(١) ينظر في ذلك: تاريخ العدوتين مشترك أو منفصل، لعز المغرب معنينو، مجلة اليقين، المغرب، العدد ٢، ٢٠١١م، ص٢١ ومابعدها.

(٢) مدينة سلا في العصر الإسلامي، ص٣، ص٤.

العاص –رضي الله عنهما–[١]، وبات المسلمون قاب قوسين أو أدنى من بلاد المغرب، مما هيأ للخلفاء من عهد عثمان بن عفان –رضي الله عنه–، ومن أتى بعده من الأمويين والعباسيين، افتتاحها ونشر الإسلام بها[٢]، وكانت تتألف من عديد من قبائل البربر المجوسية يحكمهم روم بيزنطيون نصارى[٣].

وبالفعل ابتدأ جيش الفتح المسلم بالتوغل فيها في زمن عثمان بن عفان وعلى يد واليه على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٧هـ[٤]. ومن هذا التاريخ وقادة الفتح يتعاقبون عليها إلى سنة ٦٢ه، وهي السنة التي قتل فيها عقبة بن نافع الفهري، أحد القادة المشهورين بحسن البلاء في فتوح المغرب وإفريقية، حتى عُدَّ الفاتح الحقيقي للمغرب[٥]؛ حيث وصل إلى آخر نقطة فيها وهي المحيط الأطلسي، ثم قال قولته المشهورة، التي تشي بإتمام فتح المغرب كاملًا على يديه: «يا رب،

---

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، تحقيق: عبد الله القاضي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧ه – ١٩٨٧م، ج ٢، ص٤٠٥ وما بعدها.

(٢) من كتاب فتوح البلدان، للبلاذري، اختار النصوص وعلق عليها وقدم لها: د. شوقي أبو خليل، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، د.ط، ١٩٩٧م، ص٣٠٢ وما بعدها.

(٣) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج١، ص١٢٥، ص١٣٨، ص١٣٩.

(٤) فتوح إفريقيا والأندلس، لعبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، حققه وقدم له: د. عبد الله أنيس الطباع، طبعة دار الكتاب، بيروت، د.ط، ١٩٦٤م، ص٣٤ وما بعدها.

(٥) تاريخ الأدب العربي: عصر الدول والإمارات: الجزائر– المغرب الأقصى– موريتانيا– السودان، د. شوقي ضيف، طبعة دار المعارف، القاهرة، ط١، ص ٢٦٢.

لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدًا في سبيلك»[١]. ويؤيد هذا الفتح الكامل لبلاد المغرب أن الجيش الذي فتح الأندلس بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد سار من هذا الصقع الذي أصبح إسلاميًّا منذ نصف قرن تقريبًا بجيش من آلاف المسلمين أقله من العرب وأ كثره من البربر الذين أصبحوا بنعمة الله إخوانًا.

ولا أرى صحة لما ذكره ابن عذاري في البيان المغرب؛ إذ قال: «الأكثرون يقولون إن مستقر طارق قبل محاولة الأندلس كان بطنجة، ومنهم من يقول: كان بموضع سجلماسة، وإن سلا، وما وراءها من أرض فاس وطنجة وسبتة، كانت للنصارى»[٢]؛ لأنه عندما حد المغرب جعل آخرها مدينة سلا[٣]، ولعل آخر هذا المصر هو ما وقف عنده عقبة بن نافع وقال قولته الآنفة، ولأن جيش موسى بن نصير الذي قاده طارق بن زياد لفتح الأندلس سنة ٩٢هـ لم يكن ليأمن على نفسه وعلى ما بسط عليه نفوذه من هذا الإقليم إن هو سار إلى الأندلس، وفي ظهره شوكة العدو النصراني المتربص؛ بل صار آمنًا في صقع فُتِحَ كله للمسلمين، ودان أهله بالإسلام، ولم يبق فيه للنصارى إمارة تهدد ما فتح الله به على المسلمين.

وفيما يخص مدينة سلا التي نحن بصدد الحديث عن تاريخها

---

(١) الكامل في التاريخ، ج٣، ص٤٥١.

(٢) البيان المغرب في اختصار ملوك الأندلس والمغرب، لأبي العباس أحمد بن محمد بن عذاري، حققه وضبط نصه وعلق عليه: بشار عواد معروف، ومحمود بشار عواد، طبعة دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ١٤٣٤ه – ٢٠١٣م، ج١، ص٧٢، ص٧٣.

(٣) السابق، ج١، ص٢٦.

الإسلامي فلم يكن لها ذكر مشهور كباقي مدن المغرب من مثل طنجة والقيروان وقرطاجنة، ولعل هذا راجع لفقدها المكانة القديمة لها في العصر الروماني فباتت تبعًا للإقليم كاملًا، وخضعت للدولة الإسلامية مع باقي مدن المغرب التي وُصِفَ أهلها بقولهم: «كانوا من أسمع أهل البلدان وأطوعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك، أحسن أمه سلامًا وطاعة»[١] وأهل سلا منهم.

إن بزوغ نجم مدينة سلا من جديد في التاريخ الإسلامي يعود –في ظني– إلى النصف الثاني من القرن الثاني الهجري من سنة ١٧٢ه وما بعدها وهي الفترة التي أسس الأدارسة فيها دولتهم العلوية في المغرب، والتي عاصمتها وليلي المغربية؛ حيث يذكر ابن خلدون أن محمدًا بن إدريس الثاني بن إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة قد عهد لأخيه عيسى بولاية شالة وسلا[٢]، ويظهر أنها داخلة في طاعتهم منذ بدء دولتهم؛ حيث إن عيسى بن إدريس وليها لأخيه محمد سنة ٢١٣ه، واستمرت في حوزتهم إلى أن زال ملكهم، بعد حروب طاحنة مع الدولة العبيدية؛ حيث كانوا بين لحيي أسد يكابدون دولتين عظيمتين من جهتيهما دولة الشيعة، ودولة الأموية، وكان سلطانهم إذا قوي امتد إلى تلمسان، وإذا اضطرب وانقبض اقتصر على معتصمهم بالجهة السبتية إلى أن ذهب منهم العين والأثر، وعدم الخُبْرُ وسيعدم الخَبَرُ، وكان مقتل آخر خلفائهم بالمغرب سنة

---

(١) من كتاب فتوح البلدان، ص٣٠٦.

(٢) تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٩.

٣٧٥هـ[١].

لم تهنأ الدولة العبيدية بملك المغرب، فسرعان ما قاسمتهم ملكها قبيلة صنهاجية تسمى لمتونة، وهي نواة دولة المرابطين التي استولت على إفريقية والمغرب والأندلس، ومن أبرز أمرائها أبو بكر اللمتوني، ويوسف بن تاشفين اللمتوني الصنهاجي، ودامت دولتهم بالمغرب ثمان وسبعين سنة، وزال ملكهم في خلافة إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف ابن تاشفين سنة ٥٤٠هـ[٢].

وفي عهد هذه الدولة المرابطية ارتفع شأن بني عشرة، بل كان عزهم وسيادتهم وحظوتهم في ظل سلاطين المرابطين أ كبر منه وهم في حكم الموحدين؛ إذ كان كبيرهم علي بن القاسم من المقربين لهم، مسموع الكلمة عندهم، مرضي الشفاعة، وفي خبره مع ابن الوكيل اليابري ما يدل على ذلك؛ إذ انكسر على ابن الوكيل مال وهو على مجابي المرابطين في غرناطة، فقُبِضَ عليه وأشخص إلى مراكش حاضرة المرابطين، فعندما بلغ سلا مدح ابن عشرة، فشفع له عندهم بتحمل ما انكسر عليه من المال ورده إلى عمله، فصدر جواب السلطان المرابطي بالإسعاف والإسعاد وعاد ابن

---

(١) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، للسان الدين بن الخطيب، تحقيق: سيد كسروي حسن، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ج٢، ص٣٨٣.

(٢) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، ج٢، ص٣٨٤ وما بعدها.

الوكيل إلى غرناطة انبه معاد[١].

وفي أبيات تدل على مكانة كبير هـذه الأسـرة السـلاوية نظمهـا شاعرهم محمد بن سوار الأشوني، يقول فيها:

لَقِيْتَ أَمِيرَ المُسْلِمِيْنَ مُقَرِّبًـا ... كَمَا يَتَلَاقَى شَائِقٌ وَمَشُـوقُ
رَآكَ وَلِلْإِسْلَامِ نُصْـحُكَ كُلُّـهُ ... وَعَهْدُكَ فِي ذَاتِ الإِلهِ وَثِيْقُ
تَلَقَّاكَ بِالبَشَرِ الَّذِي اَنْتَ أَهْلُـهُ ... فَقَالُوا: أَبٌ حَانٍ عَلَيْهِ شَفِيْقُ[٢]

فهذه الأبيات تظهر حقيقة المكانة التي كان عليها علي بـن القاسـم عند سلاطين المرابطين، وتحفظ تقديره عندهم، حتى أصبحت صـلته بهـم وحظوته عندهم من حقائق التاريخ التي نظمها الشعراء شعرًا.

ولأن الدنيا لا تدوم على حال، ولا تبقى لأحد زالت دولة المرابطين فزال معها سعد بني عشرة، ويبدو أن صلاتهم بالمرابطين وخـدمتهم لهـم تكفلت بإقصائهم من المشهد السلوي كغيرهم من رجالات دولة المـرابطين المغاربة[٣]، حتى أن قصورهم سكنت واستولى عليها الموحـدون[٤]، لكـن حاضرتهم سلا علا شأنها في عصر الموحدين، وأصبحت منطلـق جيـوش الموحدين الغازية، ومستقبل الوفود المهنئة والمبايعة. وقـد ذكرهـا ابـن عذاري في البيان المغرب مرارًا، وقَرَنَ ذكرها بأحداث مهمة، تنبـئ بمـا

(١) الذيل والتكملة، ج٥، ص١٥، ص١٦.
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص٨٢٥.
(٣) أسرة بني عشرة: تطورها التاريخي ودورها الحضاري، ص٢٠٣ وما بعدها.
(٤) تاريخ ابن خلدون، ج٦، ص٣٠٩، والإتحاف الوجيز، ص٧٣.

وصلت إليه من مكانة سياسية لدى أمراء الموحدين وبني مرين.[١]

اتصال الشعراء ببني عَشَرَةَ:

إن من يقرأ هذا النزر اليسير من أخبار هذه الأسرة العشرية لا يملك لنفسه إلا أن يُقِرَّ لهم بالسماحة المبالغة، والكرم المفرط، والجود المتناهي، ويضع أسماء رجالاتهم إلى جوار الخلفاء والأمراء والأجواد الذين عرفوا بإكرام الشعراء، وإغداق المال عليهم، حتى أصبحوا قبلةً لهم، ومهوىً لأفئدتهم، ينتجعونهم في الشدة والرخاء، والعسر واليسر، فينالون منهم كريم الفضل، وخير الإحسان دون مَنٍّ ولا أذى.

ومما يلفت النظر في أخبار هذه الأسرة أن قصصًا عجيبًا يدور في كتب الأدب عن اتصال الشعراء بهم. وقد ذكرنا قصة ابن الوكيل اليابري، وكيف شفع له زعيم هذه الأسرة علي بن القاسم وتحمل له المال الذي انكسر عليه من خراج غرناطة، وأعاده إلى عمله دون سابق معرفة بينهما.

وأعجب من هذه القصة ما نقله إلينا غير واحد عن الوزير الكاتب أبي بكر محمد ابن سوار الأشبوني، وكان من أمره أن أسره نصارى قورية، وكبلوه بالأغلال، وأودعوه السجن، فلم يجد خلاصًا لما هو فيه إلا أن يمتدح علي بن القاسم ويستنجد به، دون معرفة سابقة بينهما، وعلى بعد قورية من سلا، ولكن سمعة هذا السَّري، وشهرة جوده قد سمع به القاصي والداني؛ فنظم بن سوار أبيات يستنجده بها، ويسبغ عليه من مدحه، فيقول:

---

(١) البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ج٣، ص١٢٦، ص١٢٧، ص١٣٥،ص٥٥٤، ص٥٥٨.

فَنَادَيْتُ فِي حَوْلٍ مِن الدَّهْرِ كَامِــلٍ ... أَلَا رَجُلٌ حَــرٌّ أَلَــا رَجُــلٌ حُــرُّ
وَإِنَّ وَرَاءَ البَحْــــرِ أَرْوَع مَاجِــدًا ... بِغُرَّتِهِ الغَرَّاءُ يُسْــتَنْزَلُ القَطْــرُ
أَلَا خَبِّرانِي ابْنَي أَبِي هَلْ أَتَاكُمَــا ... وَشِيكًا عَنْ القَاضِي أَبِي حَسَنٍ ذِكْرُ
سَلَا عَنْ سَلَا هَلْ مِنْ عَلِيٍّ حَقِيْقَــةٌ ... فَإِنِّي فِي أَحْشَاءِ قُورِيِّــةَ سِــرُّ
أَلَا إِنَّمَــا الــدُّنْيَا عَلِــيٌّ وَقُرْبُــهُ ... وَإِلَّا فَإِنَّ، الأَرْضَ عَامِرُهَا قَفْرُ(١)

فما كان من هذا الجواد إلا أن سارع بافتداء ابن سوار، وإطلاقه من أسره، وتقريبه إليه، فصار شاعر بلاط بني عشرة دون مدافع.

لقد شكل خبر ابن الوكيل وابن سوار مع القاضي علي بن القاسم بن عشرة وعيَ معاصريهم من الشعراء، بما لدى هذه الأسرة من سماحة جبلوا عليها تدفعهم إلى إجابة مطلوب الشاعر، وهم لا يعرفونه، ولم يتصل بهم، ولم يتصلوا به، وإنما الكرم الفياض المجرد لصيق هذه النفس العشرية هو السر وراء إجابتهم لكل شاعر يذكرهم في شعره، وينوه بحاجته إليهم، ولهذا السبب الذي اشتهر عنهم قصدهم الأعمى التطيلي الشاعر الأندلسي الكبير، وأرسل لهم قصائد مدحه من الأندلس ولم يتكبد عناء الوفادة عليهم، وإن كانت إجابتهم له غير مؤكدة في أخبار هذه الأسرة، فإن شعر الأعمى التطيلي نفسه يؤكد ذلك؛ إذ امتدح جُلَّ أفرادها؛ فابتدأ بعلي بن القاسم، ثم بابنه أحمد، ثم بيوسف، ثم بيحيى(٢)، فلو لم تكن

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص٨١٦، ص٨١٧.
(٢) انظر: مدائحهم في ديوان الأعمى التطيلي، جمعه وحققه وشرحه: د. محيي الدين ديب، طبعة المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، ط١، ٢٠١٤م، ص١١٧ وما بعدها، ص٢٣١، ص٢٩٧، ص٣٠٣.

إجابتهم حاضرة لهذا الشاعر، لما كلف نفسه امتداح أكثر أفرادها، ولصرف نظره لغيرهم من الممدوحين.

وبعد ذلك فإن كل ما ورد من حديث عن جود هذه الأسرة وكرمها في كتب الترجم، فإنه مرتبط بصلاتهم بالشعراء، وصلات الشعراء بهم[١]؛ لذا طار ذكرهم، واشتهر خيرهم ومجدهم، فما نزل كبيرهم علي بن القاسم بدار إلا وتهافت إليه الشعراء يمدحونه؛ إذ قال عنه صاحب الذيل والتكملة: «ودخل الأندلس غازيًا سنة ثمانين وأربع مئة، وامتدحه بها طائفة من أدبائها، وشرَّق حينئذ، وامتدح بالمهدية ومصر وغيرهما، ثم عاد إلى بلده»[٢]. من هنا نظن أن الشعراء الذين اتصلوا بهذه الأسرة لا حصر لهم، ولا شك لدينا في أن عشرات الشعراء مدحوهم، ووفدوا عليهم قبل ذيوع خبرهم مع ابن الوكيل وابن سوار والأعمى التطيلي؛ لأن اتصال هؤلاء الشعراء بهم لا يمثل اتصافهم بالكرم والجود، بل يمثل ذيوع الصيت شرقًا وغربًا حتى أصبح معاصروهم من الشعراء يرسلون إليهم رسائل الاستعطاف والاستنجاد والمديح على بعد الإقامة، وعدم المعرفة، فيأتيهم نوال هذه الأسرة سريعًا دون تأخر أو تردد. وما اختيار الشعراء لهم في هذا الباب دون غيرهم إلا دليل هذه السمعة الطيبة التي سار بها الركبان قبل ابن الوكيل وابن سوار والأعمى التطيلي.

---

(١) الذيل والتكملة، ج٥، ص١٥، والإتحاف الوجيز، ص١٠٠، وقلائد العقيان ومحاسن الأعيان، للفتح بن خاقان، حققه وعلق عليه: د. حسين يوسف خربوش، طبعة مكتبة المنار، الأردن، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، ص٦٥٩.

(٢) الذيل والتكملة، ج٥، ص١٥.

ومما يؤسف له في هذا السياق أن كثيرًا من الشعر الذي قيل فيهم قد سقط من يد التاريخ ولم يصل إلينا، وإلا فأين ما ألفه الشاعر إسماعيل بن ولاد في مدح علي بن القاسم بن عشرة ورثائه، ومدح ابنه، وأخيه أبي العباس؟ الذي وضعه في مجموع أسماه نزهة الأدب[1]، لم يصل إلينا، ولكن الزمن أبقى لنا من أمداحهم ومراثيهم قدرًا لا بأس به، نستطيع أن نتبين خصائصه وسماته في هذه الدراسة، ونقف على ملامح هذه الأسرة في شعر معاصريهم فما بقي منه كفيل بإظهار مآثر هذه الأسرة، ورسم صورة بينة لهم.

ومما يحسن ذكره في هذا السياق من اتصال الشعراء بهم أن الشاعر المغربي أو الأندلسي عندما يصبح في حضرة هذه الأسرة يأسره أفرادها بالتودد له، ويؤخذ بما لديهم من الملاطفة، وحب الشعر، وهذا ما يحبب الشعراء في ممدوحيهم، ويرغبهم في البقاء عندهم؛ لذا أصبح محمد بن سوار الأشبوني شاعر بلاطهم، فقد وجد من كبيرهم علي بن القاسم حفاوة وتوددًا لم يجدهما عند غيره، هذا ما يؤكده ابن بسام في نفح الطيب؛ حيث يقول: «وخرج القاضي الفقيه أبو الحسن علي بن القاسم بن محمد بن عشرة أحد رؤساء المغرب الأوسط في جماعة من أصحابه منهم محمد بن عيسى بن سوار الأشبوني ورجل يسمى بأبي موسى خفيف الروح، ثقيل الجسم، فجعل يعبث بالحاضرين بأبيات من الشعر يصنعها فيهم، فصنع القاضي أبو الحسن معابثًا له:

---

(١) السابق، ج٥، ص١٦، وسمى هذا المجموع ابن إبراهيم في كتاب الإعلام "نزهة الآداب"، ج٩، ص١٥٤.

وَشَاعِرٍ أَثْقَلُ مِنْ جِسْمِهِ

ثم استجاز ابن سوار، فقال:

تَأْتِي مَعَانِيْه عَلَى حُكْمِهِ
يَهْجُو فَلَا يُهْجَى فَهَلْ عِنْدَكُمْ ظُلَامَةٌ تُعْدِّي عَلَى ظُلْمِهِ
لِسَانُهُ فِي هَجْوِهِ حَيَّةٌ مَنِيَّةُ الحَيَّةِ فِي سُمِّهِ»[1]

بهذا الجو من الألفة الذي يشيعه كبير الأسرة العشرية بين أصحابه والتودد إليهم، يجعلهم مأسورين بشخصه، وراغبين بملازمته؛ لذا أفرغ ابن سوار طاقته الشعرية في مدح علي وأبنائه من بني عشرة. ويظهر أن أبناء علي كانوا مثله في التودد والتلطف للشعراء، فكل من مدح كبير هذه الأسرة مدح أبناءه من بعده، مما ينبئ بأن طباع أفراد هذه الأسرة جميعهم واحدة في تقريب الشعراء والتودد لهم.

وإن كان الشعر ثمرة هذا الاتصال هو المراد من هذه الدراسة، فإننا ننتقل للنظر فيما جادت به قرائح الشعراء؛ لنتعرف على بني عشرة من شعر معاصريهم، فنكمل صورتهم أدبيًّا بعد ما اكتملت تاريخيًّا وحضاريًّا.

بنو عشرة في عيون معاصريهم:

تختلف نفسية الشاعر وعقليته عن غيره من الأشخاص الذين ليسوا بشعراء، فمخيلته الواسعة التي تشتمل على صور جزئية أو ضبابية لحدث

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: د. إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، د.ط، ١٣٨٨ه – ١٩٦٨م، ج٣، ص ٦١٢.

معين، أو فرد من أفراد مجتمعه تضطره عادة إلى تأمل الكنه البادي بالأحداث والشخوص، والنظر إليهما من زوايا شتى؛ ليتشكل عنده الوعي التام بالملابسات والحيثيات الدقيقة، لأي أمر يعالجه، ويتناوله؛ حيث إن هذا الاستشعار الداخلي للأمور يتبعه ترتيب لأجزاء الصورة، واستجلاء الضبابية عن معميات عاشها وأحس بها، فإذا بنا نصل معه إلى لحظة فهم الحقائق الغائبة وإدراكها، فنفهم رأيه ورؤيته للأشياء من شعره، فتبدو المدائح والمراثي والأهاجي... نتاج هذا التأمل الطويل، لكل ما يحيط بالشاعر من ظروف، وتعبيره عنها في شعره دليل إشراكه لنا في فهم ما فهمه، وإدراك ما أدركه في زمان محدد، ومكان معين.

ولكي نفهم ما قيل في بني عشرة من شعر، نقف عند كل غرض من أغراضه متدرجين في تناولنا لهذا الشعر من الأكثر استعمالًا إلى الأقل استعمالًا، ولأن المديح أكثرها، فانطلاقنا سيكون منه.

المديح:

من أغراض الشعر القديمة، وبه تحفظ المآثر والمفاخر، وإليه تسعى الأنفس، ولأنه مطمح السادات والأشراف، كانت مادته الخصال الحميدة، والأفعال العظيمة الجليلة، التي بها يبقى الذكر ويدوم، ويستمر على مر الأزمان والدهور، فكل إنسان راغب فيه، رائم له، لكنه لا يتأتى إلا لأهل المروءات، ولا ينزل إلا في ساحات أهل الفضائل الذين قدموا من الأفعال ما يستحقون به مديح الشعراء.

ولبني عشرة في الجود والكرم أفعال جعلت الشعراء يقبلون عليهم ويُحْصُونَ مآثرهم، وإذ بنا نجد الفرد العشري من هذه الأسرة قد أصبح حاملًا لفضائل متعددة حرص كل شاعر مدحهم أن يثبتها لهم، والكرم من

أهم هذه الفضائل التي سجلها الشعراء لهم، وأكثروا من ذكرها في مديحهم، فمن ذلك قول شاعرهم ابن سوار الأشبوني في علي بن القاسم:

إِذَا نَزَلَ العَافُونَ فـــي عُقْـــرِ دَارِهِ ... فَقَدْ نَزَلُوا فِـــي غِبْطَـــةٍ وأَمَـــانِ
بِحَيثُ حِيَاضُ الجُودِ زُرْقٌ مِيَاهُهَا ... وَمُزْنُ العَطَايَا دَائِـــمُ الهَطَـــلانِ
وللْغَيْثِ أَوْقَـــاتٌ يُفَـــاجِئُ صَـــوْبَهُ ... وَنَائِلُـــــهُ يَنْهَـــــلُّ كُـــــلَّ أَوَانِ
أَغَرُّ طَلِيْقُ الوَجْهِ يَهْتَـــزُّ لِلنَّـــدَى ... كَمَا اهْتَزَّ مَصْقُولُ الفِرِنْدِ يَمَـــانِي
فَمَا لِعَلِـــيٍّ فِـــي البَرِيَّـــةِ مُشْـــبِهٌ ... وَمَا لِعَلِـــيٍّ فـــي الأَنَـــامِ بِثَـــانِي
فَلَوْ أَنَّنِي فِي الوَصْفِ لَمْ أَذْكُر اسْـــمَهُ ... دَرَوهُ وَقَالُوا: ذِي صِفَاتُ فُلَانِ[1]

فجود علي من نظر ابن سوار كالمزن دائم الهطلان في كـــل أوان، وليس كالغيث الذي يفاجئ هطوله ثم ينقطع، وبهذا يصبح علي بن القاســـم كبير هذه الأسرة ليس له شبيه في البشر، وليس منه ثانٍ، حتى أن النـــاس يعرفونه من صفاته التي لا يشاركه فيها أحد.

وفيه أيضًا يقول ابن حمديس الصقلي:

وَلَولَا ذُرَى ابنِ القَاسَمِ الواهِبِ الغِنَـــى ... لَمَا حُطَّ مِنْهَا عِنْدَ ذِي كَرَمٍ رَحْلُ
تُخَفَّـــضُ أَقْـــدَارُ اللِّئَـــامِ بِلُـــؤْمِهِمْ ... وَقَدْرُ عَلِيٍّ مِنْ مَكَارِمِـــهِ يَعْلُـــو
فَتىً لَمْ يُفَـــارِقْ كَفَّـــهُ عَقْـــدَ مِنَّـــةٍ ... وَلَا عِرْضَهُ صَوْنٌ وَلَا مَالَهُ بَـــذْلُ

إلى أن قال:

مُرَوَّعَـــــةٌ أَمْوالُـــــهُ بِعَطَائِـــــهِ ... كَأَنَّ جُنُونًا مَسَّهَا مِنْهُ أَوْ خَبَـــلُ

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨٢٤.

وَأَيُّ أَمَـــانٍ أَوْ قَـــرَارٍ لِخَـــائِفٍ عَلَى رَأْسِهِ مِنْ كَفِّ قَاتِلِهِ بَصْـلُ[1]

فشهادة ابن حمديس في علي بن القاسم بالكرم حملهـا لنـا هـذا المعنى الطريف والبديع، الذي جعل فيه الشاعر أموال ممدوحه مروعة كأن جنونًا أو خَبَلًا أصابها، لشدة إنفاق صاحبها وبذلـه لهـا، حتـى صـارت كالخائف الذي لا يقر له قرار، ولا يأمن غضبة الكريم التي قد تجعله عطاءً من فرط الكرم.

ويمدحه أيضًا الأعمى التطيلي، ويصفه بواهب الخيل، فيقول:

الوَاهِبِ الخَيْلَ عِقْبَانًـا مُسَـوَّمَةً لَوْ سُوِّمِتْ قَبْلَهَا فِي الجَوِّ عِقْبَـانُ[2]

ومن معاني الشعراء السابقة في جود هذه الأسرة، ترتسم لنا صورة بديعة قد لا نجدها عند غيرهم؛ حيث إن ابن سوار يؤكد على صفات مميزة لهم ليس لهم شريك فيها حتى إذا عدت عرفهم الناس بها. وابن حمـديس يؤكد فرط الكرم الذي يصل إلى أن ترتعب أمـوالهم منـه، أمـا التطيلـي، فيؤصل نفاسته؛ إذ إن الخيل من نفائس العطايا التي يهبها الكريم البـاذل، وفي كل هذا تأكيد سجية الكرم لهذه الأسرة العشرية.

من هذا الإحساس بالكرم المفرط لدى كبير هـذه الأسـرة، أشـرك الشعراء معه أبناءه في مدائح الجود والبذل، ولعلهم رأوا مـنهم سـماحة كسماحة أبيهم، فهذا الأعمى التطيلي يرسل مدحته لأبي العباس أحمد بـن

---

(١) ديوان ابن حمديس الصقلي، صححه وقدم له: د. إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، ص٥٥٨.

(٢) ديوان الأعمى التطيلي، ص ٢٣١.

علي، فيقول له:

إِذَا التَقَتِ النَّارُ الفَــرَاشَ تَأَلَّقَــتْ أَيَادِيهِ فَالتَفَّــتْ عَلَيْهَــا الهَوَالِــكُ
إِذَا سَمِعَتْ أُذْنَاهُ حَيَّ عَلَــى العُلَــا فَلَا الجُودُ مَتْرُوكٌ وَلَا البَأسُ تَارِكُ[1]

ويقول في إحدى موشحاته ليوسف بن علي:

ذُو سُــــؤْدَدٍ لَــــا يُنَــــالْ لَــــوْ تَبعتْــــهُ الأَنْجُــــمُ
إِذَا ذَكَــــــرْتَ النِّــــــزَالْ فَهُــــوَ الجَــــرِيءُ المُقْــــدِمُ
وَإِنْ طَلَبــــــتَ النَّــــــوَالْ فَهُــــوَ الجَــــوَادُ المُــــنْعِمُ
تَــــاللهِ مُــــذْ بَــــذَلَا مَــــا قَــــامَ للغَمَــــــــائِمِ مِيْــــــزَانُ
اضْــــرِبْ بِــــهِ المَثَلَــــا فَــــإِنَّ جُــــوْدَ حَــــاتَمِ بُهْتَــــانُ[2]

لقد كبت يوسف جود الغمام بكرمه، حتى جَوَّزَ الشاعر أن يضرب به المثل في الجود والكرم، كحاتم الذي عد الشاعر قَصْرَ الكرم عليــه بهتانًــا لهذا السري العشري.

أما يحيى بن علي فقد اخْتُصَّ به يحيى بن بقي القرطبــي، لســبب يذكره صاحب الذخيرة في ترجمته؛ إذ يقول: «إلا أن الأيام حرمته، وقطعت حبل رعايته وصرمته، فلم تتم له وطرًا، ولم تسجم عليه الحظوة مطرًا، ولا سَوَّغَتْ له الحُرمَةُ نصيبًا، ولا أنزلته مرعىً خصيبًا، فصار راكب صهوات، وقاطع فلوات، لا يستقر يومًا ولا يستحسن نومًا، مع توهم لا يظفره بأمان،

(١) ديوان الأعمى التطيلي، ص ١١٩.
(٢) السابق، ص ٢٩٩.

وتقلب ذهن كالزمان، إلا أن يحيى بن علي بن القاسم نزعه من ذلك الطيش، وأقطعه جانبًا من العيش، وأرقاه إلى سمائه، وسقاه صَيِّبَ نعمائه، وفيأه ظلاله، وبوأه أثر النعمة يجوس خلاله، فصرف به أقواله، وشَرَّفَ بعواقبه فعاله، وأَفْرَدَه منها بأنفس دُرٍّ، وقصده منها بقصائد غُرٍّ»[1].

ويظهر أن إنعام يحيى بن علي على يحيى بن بقي كان بالغًا؛ لأننا نجد في شعره ذمًّا لبعض أهل المغرب الذين لم يَقُوهُ حَرَّ الفَاقَةِ والعَوزِ، فيقول:

أَقَمْتُ فِيْكُمْ عَلَى الإقْتَارِ وَالعُدْمِ ... لَوْ كُنْتُ حُرًّا أَبِيَّ النَّفْسِ لَمْ أُقِمِ
وَظِلْتُ أَبْكِي لَكُمْ عُذْرًا لَعَلَّكُمُ ... تَسْتَيْقِظُونَ، وقَدْ نِمْتُم عَنِ الكَرَمِ[2]

ونظن أن هذه الأبيات قيلت قبل اتصال ابن بقي بيحيى بن علي؛ لأنه عندما اتصل به دَبَّجَ مدائح كرمه فيه، مما يدل على عظيم نوال الشاعر منه، وله فيه قوله:

أَرْبَى عَلَى الغَيْثِ المُلِّثِ لأَنَّهُ ... أَعْطَى كَمَا أَعْطَى وَلَمْ يَسْتَعْبِرِ
أَزْرَى عَلَى البَحْرِ الخِضَمِّ لِأَنَّهُ ... فِي كُلِّ كَفٍّ مِنْهُ خَمْسَةُ أَبْحُرِ[3]

فابن بقي يسير مع باقي الشعراء في مديحهم وتشبيههم بالغيث،

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٢٣٧.
(٢) ديوان ابن بقي الأندلسي، جمع ودراسة وإعداد: انتصار خضر الدنان، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، ص ١١١.
(٣) السابق، ص ٨٧.

مما يشي بتوظيف الشعراء الأندلسيين لطبيعة بيئتهم في مدائحهم لهذه الأسرة؛ حيث إن جل مداحهم من الأندلس. ولا يقف ابن بقي عند هذا الحد بل يشارك الشعراء أيضًا في ابتكار المعاني المعجبة في مدحهم، وهو ما ظهر في البيتين السابقين؛ حيث جعل ليحيى ابن علي من فرط الكرم خمسة أبحر في كل كف، وهذا مما يروق للممدوح والسامع.

وفي قصيدة أخرى لابن بقي –وهي أطول قصائد ديوانه– يعترف فيها بكرم ابن علي، وأنه أجاره من صروف الدهر وبؤس الحياة، فيقول:

فَفِي يَدِ ابنِ عَلِيٍّ مَا تُؤَمِّلُهُ ... سَحَابُ جُوْدٍ كَفَانَا كُلَّ إِمْحَالِ
كَأَنَّمَا الضَّيْفُ إِذْ يَحْتَلُّ سَاحَتَهُ ... فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الحُسْنِ مِحْلَالِ
كَمْ نِلْتُ مِنْهُ بِلَا مَنٍّ وَلَا عِدَةٍ ... مِن المَكارِمِ مَا لَمْ يَجْرِ فِي بَالِي
مَا كُنْتُ فِي مَدْحِهِ إِذْ هَزَّهُ كَلِمِي ... إِلَّا كَمَا شَعْفَ المَهوةِ الطَّالِي
أَقَالَنِي مِن عِثَارِي آخِذًا بِيَدِي ... نَدَبٌ بِه أَوْرَقَتْ أَغْصَانُ آمَالِي
وَلَمْ تُفِقْ نَفْسُهُ حَتَّى تَمَلَّكَنِي ... بِالمُسْتَرِقِّيْنَ مِنْ بِرٍّ وَإِجْمَالِي[1]

هكذا يكون عطاء هذه الأسرة لا مَنَّ فيه، ولا يخطر ببال من عظمه.

وممن مدح يحيى بن علي الأعمى التطيلي، ولم يخرج في مديحه عن مدح سابقيه؛ إذ نراه يشبهه بالبحر والسحب[2]، وهو تشبيه دارج عند كل مادحيهم.

وعندما أدرك الشعراء الذين اتصلوا ببني عشرة جودهم الغمر،

---

(١) ديوان ابن بقي الأندلسي، ص ١٠٥.

(٢) ديوان الأعمى التطيلي، ص ٣٠٣.

وكرمهم الفياض؛ لم يتحرجوا من الجهر بمبتغاهم لأفراد هذه الأسرة، وهو جهر بلغ حد السؤال عند بعضهم كالأعمى التطيلي، الذي قال لأبي العباس أحمد:

إِلَيكَ أَبَا العَبَّاس غُرٌّ مَدَائِحِي ... تُصَلِّي عَلَيْهِنَّ العُلَا وَتُبَارِكُ
إِلَيْكَ وَرَيْعَانُ الرَّجَاءِ يَؤُمُّهَا ... وَقِدْمًا رَجَتْهَا البَائِسَاتُ الضَّرَائِك
قَلَائِدَ أَعْنَاقٍ وَأَزْهَارَ أَعْيُنٍ ... ومُنْهُنَّ فِي بَعْضِ الصُّدُورِ حَسَائِكُ
فَحِيكِ لِيَ مِنْ نَعْمَاكَ بُردًا أَجُرُّهُ ... فَإِنِّي لِأَبْرَادِ المَدَائِحِ حَائِكُ[1]

ومثله قول ابن بقي ليحيى بن علي:

أَقْبَلْتُ مُرْتَادًا لِجُودِكَ إِنَّهُ ... صَوبُ الغَمَامَة بَلْ زُلَالُ الكَوْثَرِ
وَرَأَيْتُ وَجْهَ النُّجْحِ عِنْدَكَ أَبْيَضًا ... فَرَكِبْتُ نَحْوَكَ كُلَّ لُجٍّ أَخضَرِ[2]

ولعل هذه المباشرة في سؤال الممدوح من أفراد هذه الأسرة، دافعه عند الشعراء ما كانت تلاقيهم به دولة اللمتونين المرابطية من تجاهل؛ إذ لم يكن سلاطينها يعنون بالأدب والشعر، ولا يجيزون الشعراء؛ لذا حرص التطيلي على تذكير أبي العباس أحمد بن علي حال الشعراء في ظل هذه الدولة التي قدمت الفقه على الشعر؛ إذ يقول:

أَيَا رُحْمَتَا لِلشِّعْرِ أَقْوَتْ رُبُوعُهُ ... عَلَى أَنَّهَا لِلْمَكْرُمَاتِ مَنَاسِكُ
وَلِلشُّعرَاءِ اليومَ ثُلَّتْ عُرُوشُهُمْ ... فَلَا الفَخْرُ مُخْتَالٌ وَلَا العِزُّ تَامِكُ

(١) السابق، ص ١٢٠.
(٢) ديوان ابن بقي الأندلسي، ص ٨٨.

إلى أن قال:

فَيَا دَوْلَةَ الضَّيْمِ اجْمِلِي أَوْ تَجَامَلِي فَقَدْ أَصْبَحَتْ تَلْكَ العُرَى وَالعَرَائِكُ
وَيَا "قَامَ زَيْدٌ" أعْرِضِي أو تَعَارَضِي فَقَدْ حَالَ دُوْنَ المُنَى "قَالَ مَالِكُ"[١]

لذا نفهم تسمية الدكتور محمد بن شريفة لبني عشرة بـ "حماة الأدب"[٢]؛ فهم من رفع لواءه في هذا العصر بأعطياتهم للشعراء ومكافأتهم، وفي هذا تفسير لما وصلت له هذه الأسرة من مكانة عند المرابطين سمحت لهم أن يغدقوا المال على الشعراء دون اعتراض من أمرائها الذين قدموا الفقهاء على الشعراء كما قال الأعمى التطيلي.

ويبدو أن تقديم الفقهاء على الشعراء في سلطان المرابطين، هو ما خول هذه الأسرة المكانة المرموقة التي وصلوا إليها في عصرهم؛ إذ كانت هذه الأسرة منذ أيام كبيرهم علي بن القاسم يلون خطة القضاء في مركز سلطانهم سلا، وبهذا وصفهم الشعراء بالقضاء وما يتعلق به من صفات وخصال، من ذلك قول شاعرهم محمد بن سوار في أبي العباس أحمد:

مُوَفَّقُ آرَاءِ القَضَاءِ كَأَنَّمَا بَصِيْرَتُهُ فِي الغَيبِ تَخْتَرِقُ الحُجْبَا[٣]

ويؤكد الأعمى التطيلي أمر توليهم القضاء بسلا، ويبالغ في جعل

(١) ديوان الأعمى التطيلي، ص ١١٨.
(٢) أسرة بني عشرة: تطورها التاريخي ودورها الحضاري، ص ١٨٨.
(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨٣٠.

أحمد بن علي "قاضي قضاة الغرب وابن قضاته" في قوله له:

بِقَاضِي قُضَاةِ الغَرْبِ وَابنِ قُضَاتِهِ تَوَدَّدَتْ الآمَالُ وَهِـيَ فَـوَارِكُ[١]

وفي هذا دلالة على أن جل أفراد هذه الأسرة من العاملين بالقضاء.

وعندما استنجد ابن سوار بعلي بن القاسم، أخذت نفسه بتتبع أخبار هذا الشريف، وما يكون من رده على استعطافه، وتخليصه من الأسر، فقال مناجيًا أهله وإخوانه عن خبره:

أَلَا خَبِّرَانِي اَبَنِي أَبِي هَلْ أَتَاكُمَـا وَشِيْكًا عَنْ القَاضِي أَبِي حَسَنٍ ذِكْـرُ[٢]

ويعود الأعمى التطيلي، ليؤكد قضاء يحيى بن علي، ويصفه بأشرف القضاة في قوله من موشحة له فيه:

يَـا أَيُّهَـا السَّـرِيُ مِـنْ أَشْـرَفِ القُضَـاةِ[٣]

من هنا نفهم ما حازته هذه الأسرة من مكانة اجتماعية، فخطة القضاء منصب لا يليه إلا فقيه عالم؛ لذا ناسب الشعراء بين توليهم للقضاء، وما أحاطوهم به من صفات تلائم هذا المنصب الديني كالعدل الذي لازم مدحهم، وخير من يصور هذا فيهم الأعمى التطيلي؛ إذ قال في مدحته لأبي العباس أحمد:

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي، ص ١١٨.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨١٦.

(٣) ديوان الأعمى التطيلي، ص ٣٠٣.

حَرِيٌّ بِأَنْ لَا يَعْدُوَ الحَــقَّ وَجْهُــهُ لَدَيهِ وَقَــدْ رَاغَ الأَلَــدُّ المُمَاحِــكُ
وَأَنْ تَعْرِفَ الأَقْوَامُ سَوْرَةَ عَدْلِــهِ كَمَا احتَمَلَتْ نَارُ القُيونِ السَّــبائِكُ
وَأَنْ يَتَوقَّى الضَّيْمُ جَانِــبَ جَــارِهِ كَمَا يَتَوَقَّى البَّعْلَ عَــذْرَاءُ عَــارِكُ
نَضَاهُ أَمِيْــرُ المُــؤْمِنِينَ مُهَنّــدًا لِكُلِّ دَمٍ مِنْهُ وَإِنْ عَــزَّ سَــافِكَ[1]

وابن سوار لا يرى عَمَارَ الأرض إلا بعدل ممدوحه علي بن القاسم؛ إذ يقول فيه:

بَعَدْلِ عَلِيٍّ تُعْمَــرُ الأَرْضُ كُلُّهــا وَتَتَّسِعُ الدُّنْيَا وَلَوْ أَنَّهَــا قَبْــرُ[2]

وفي أبيات استدركها الدكتور محمد بن شريفة ليحيــى بــن بقــي سقطت من نسخة قلائد العقيان المطبوعة[3]، ولم تأت على ذكرها جامعــة ديوان ابن بقي[4]، وفيها يشبه الشاعر أحكام ممدوحه أبي العبــاس أحمــد بأحكام العمرين، عمر بن الخطاب وعمر بــن عبــد العزيــز –رضــي الله عنهما–، لعدالته وحسن أحكامه، فيقول:

وعَفَّى عَلَــى رَسْــمِ جَــوْرٍ أَتَــى عَلَــى عَهْــدِ مَــدْيَنَ أَوْ تُبَّــعِ
وَأَحْيَــا بِأَحْكَامِــهِ سِــيْرَةً مِنَ العُمَــرَيْنِ عَلَــى مِهْيَــعِ[5]

(١) السابق، ص ١١٩.
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨١٧.
(٣) أسرة بني عشرة: تطورها التاريخي ودورها الحضاري، ص ٢١٧، حاشــية رقــم (١٠١).
(٤) راجع ديوان ابن بقي الأندلسي جمع انتصار خضر الدنان، لم ترد فيه هذه الأبيات.
(٥) أسرة بني عشرة: تطورها التاريخي ودورها الحضاري، ص ١٩٩.

وفي يوسف بن علي يقول الأعمى التطيلي؛ مبينًا عدله:

ذَاكَ الَّـــــــــذي كَمُلَــــــا   وَفِي جَمِيعِ العَــالَمِ نُقْصَــانُ
وطَالَمَـــــــا عَــــــــدَلَا   وَلِلزَّمَانِ الظَّــالِمِ عُــدْوَانُ[1]

ويسبغ الشعراء عليهم ما يناسب هذه الشخصية الدينية من صفات تزينها، كالرفق والوقار والحلم والأناة، وهي أوصاف تقابلنا أينمـا أجلنـا النظر في الشعر الذي قيل فيهم، من ذلك قول ابن سـوار فـي علـي بـن القاسم:

لَوْ أَنَّ رِفْقَكَ فِي القُلُــوبِ مُرَكَّــبٌ   لَمْ يَلْتَقِمْ فِي البَحْرِ يُونُسَ حُــوتُ
وَلَقَدْ حَمَلْتَ مِنَ الوَقَــارِ سَــكِيْنَةً   لَــمْ يَحْتَمِلْهــا قَبْلَــكَ التَــابُوتُ[2]

ومثله قول ابن بقي في يحيى بن علي:

نَدْبٌ عَلَيْهِ مِــنَ الوَقَــارِ سَــكِيْنَةٌ   فِيْهَا حَفِيْظَةُ كُلُّ لَيْــثِ مُخْــدِرِ[3]

وعند الأعمى التطيلي يكون الحلم والأناة هبة ربانية، قد خـص الله –سبحانه وتعالى– بها يحيى بن علي؛ إذ يقول فيه من موشح له:

يَـــــا أَيُّهَــــا السَّـــــرِيُّ   مِـــــنْ أَشْـــرَفِ القُضَــــاةِ
قَـــــدْ خَصَّــــكَ العَلِـــــيُّ   بِــــــالْحِلْمِ وَالأَنَـــــاةِ

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي، ص ٢٩٩.
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨١٨.
(٣) ديوان ابن بقي الأندلسي، ص ٨٧.

قَـــدْ حَلَّـــكَ العَلِـــيُّ بِـــالحِلْمِ والأَنَـــاةْ[1]

ولا ينسى مدَّاحهم وصف دينهم، وأنهم على حق منه وتقى، بل هم رموز فيه يبينونه للناس، فيزيلون به الغشاوة عن أعينهم، ويردعون كل سادر في غيه، كما يقول الأعمى التطيلي في مدحه لأبي العباس أحمد:

رَفَعْتُم لِأَهْلِ الغَرْبِ أَعْلَامَ دِيْنِهِمْ فَأَبْصرَ مَأْفُوكٌ وَأَقْصَرَ آفِكُ[2]

وفي قصيدة ليحيى بن بقي يشيد فيها بورع يحيى بن علي، وحرصه على صيام رمضان، وانقطاعه للعبادة فيه؛ إذ لم يقضِ حاجة الشاعر، وأرجأه إلى شوال[3].

ويجمع ابن سوار لعلي بن القاسم من الخصال ما يثبت فضائله الدينية، وخصاله الحميدة الدنيوية؛ إذ يقول له:

وَبَنُو عَشْرٍ ذَوُو العَلْيَاءِ لَمْ يُخْلَقُوا إِلَّا لِكَفٍّ وَذِيَادِ
وَعَفَافٍ وَاعْتِكَافٍ وَتُقًى وَوَفَاءٍ وَعَطَاءٍ وَأَيَادِي[4]

هذه القيم الدينية التي تحلى بها أفراد هذه الأسرة بوصفهم من القضاة أهل الفقه، زادت من تقرب الشعراء إليهم، ومدحهم بأسلوب يلائم

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي، ص ٣٠٣.
(٢) السابق، ص ١٢٠.
(٣) ديوان ابن بقي الأندلسي، ص ١٠٦.
(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨١٩.

علمهم الشرعي، ومكانتهم الدينية في سلا؛ إذ عمد مدَّاحهم إلى اقتباس آي القرآن وهم ينسجون المدائح فيهم، وكأنهم يومئون لأفراد هذه الأسرة بما لديهم من علم شرعي اكتسبوه، أو زاد لديهم منذ اتصالهم بهذه الأسرة. وأكثر من جرى الاقتباس على لسانه من الشعراء شاعرهم محمد بن سوار الأشبوني، وله من مدحة قالها في علي بن القاسم:

لَوْ أَنَّ رِفْقَكَ فِي القُلُوبِ مُرَكَّبٌ ... لَمْ يَلتَقِمْ فِي البَحْرِ يُوْنِسَ حُوتُ

وَلَقَدْ حَمَلْتَ مِنَ الوَقَارِ سَكِيْنَةً ... لَمْ يَحْتَمِلْهَا قَبْلَكَ التَابُوتُ[1]

وظاهر في البيت الأول تضمين ابن سور لقوله تعالى حكاية عن نبي الله يونس: ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي﴾ [2]، وفي البيت الثاني تضمين قول الله تعالى: ﴿رَّحِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَاءَ﴾ [3]، وفي هذه الاقتباسات ما يشي بمبالغة الشاعر في مدح ممدوحه؛ حيث إن رفقه لو كان في قلوب قوم يونس -عليه السلام-، لما غاضبهم وخرج وركب البحر فالتقمه الحوت، وكذلك سكينته التي لم تكن كسكينة التابوت الذي أنزله الله على بني إسرائيل.

ويقول في أبي العباس أحمد بن علي:

يَمْشُونَ فَوْقَ الأَرْضِ تَحْتَ حُلُومِهِمْ ... فَتَخَالُهُم أَوْتَادُهَا وَجِبَالُهَا

---

(١)السابق، ج٢، ص ٨١٨.

(٢) سورة الصافات: الآية ١٤٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٤٨.

لَوْلَـــاهُمُ لَتَحَرَّكَـــتْ جَنَبَاتُهَـــا مِنْ رَجْفَةٍ ولَزُلْزِلَتْ زِلْزَالُهَـــا[١]

أما الأعمى التطيلي فيوظف التراث التاريخي مستلهمًا "العصا" فرس جذيمة الأبرش، ومضمنًا عصا نبي الله موسى –عليه السلام– التي تحولت إلى ثعبان كما قص الذكر الحكيم، فيقول من قصيدته في مـــدح علـــي بـــن القاسم:

عَصَا جُذَيْمَةَ إِلَّا مَـــا أُتِـــيْحَ لَهَـــا مِنْ أَمْرِ مُوسَى فَجَاءَتْ وَهْيَ ثعْبَانُ[٢]

ولم تكن الثقافة الدينية والتاريخية فقط هي وسيلة الشعراء لولوج عالم هذه الأسرة العشرية الكريمة، وإنما نجد حرص الشعراء على إطـــراء مدينتهم سلا في أشعارهم التي قدموها لهذه الأسرة، وكأنهم بذلك يؤكـــدون سيادتهم لهذا البلد المغربي. ولعلهم أدركوا ما تمثله سلا لهم؛ فقرنوا فـــي أشعارهم بينهم وبينها، لينالوا الحظوة لديهم بذكر ما يحبون؛ لـــذلك أحـــب شاعرهم محمد بن سوار الأشبوني سلا، وساكنها، وكل منتسب لها، لأنهـــا دار علي ابن القاسم، فقال:

أُحِبُّ سَلَا مِنْ أَجْلِ كَوْنِكَ فِي سَـــلَا فكُـــلٌّ سَـــلَاوِيٍّ إِلَـــيَّ حَبِيْـــبُ
لَصَيَّرتُهَا مِصْـــرًا فَنِيلُـــكَ نِيْلُهَـــا وَكَفَّاكَ بَطْحَاهَا وأَنْتَ خَصِـــيبُ[٣]

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨٢٩.
(٢) ديوان الأعمى التطيلي، ص ٢٣٢.
(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨٢٦.

فكل هذا الحب لسلا من أجل سيدها علي بن القاسم، ولكونه أحال هذه المدينة الصغيرة بما أوتي من فضل وكرم كمصر العظيمة، التي صار نِيْلُهَا كَنَائِلِ علي بن القاسم، فهو كالخصيب.

ويُكْثرُ الأعمى التطيلي من ذكر سلا في قصائده، وموشحاته التي نظمها في مدح الأسرة العشرية أسياد سلا، فيقول لأحمد بن علي من لطيف معانيه:

فَقُلْ لِسَلَا شُحِّي عَلَى آلِ قَاسِمٍ وَلَا تَسَلِي بَغْدَادَ أَيْنَ البَرَامِكُ[1]

فهو يأمر سلا أن تبخل ببني القاسم، ولا تخرجهم منها، ولا تكون نهايتهم كنهاية البرامكة في بغداد، الذين نكبهم الخليفة العباسي هارون الرشيد نكبتهم المشهورة[2]، فهذا البيت دعاء لهذه الأسرة بالبقاء على عرش سلا، وعدم زوال سلطانهم منها.

وله أيضًا من إحدى موشحاته، قوله لأحمد بن علي:

يَا أَيُّهَا الحَائِمْ هَلْ لَكَ فِي عَذْبِ مِلءِ الدِّلَا
يَمِمْ بَنِي القَاسِمْ وَاقْصِدْ مِنَ الغَرْبِ إِلَى سَلَا[3]

(١) ديوان الأعمى التطيلي، ص ١٢٠.

(٢) انظر في ذلك: تاريخ الطبري – تاريخ الرسل والملوك – لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف، القاهرة، ط٢، د.ت، ج٨، ص ٢٨٧ وما بعدها.

(٣) ديوان الأعمى التطيلي، ص ٢٩٧.

وفي قوله: اقصد من الغرب إلى سلا، دلالة على ما وصلت إليه سلا أيام بني القاسم، حتى صارت قبله الشعراء، فكل حائم لا يدري أين وجهته فلييمم نحو سلا فإنه سيجد البِّرَ والإحسان عند بني عشرة فيها، فهذه دعاية من التطيلي لهم، وإبراز لمكانة سلا في عهدهم.

ويقول لشقيق أحمد يوسف بن علي:

إنْ جِئْتَ أَرْضَ سَلَا ... يَلْقَاكَ بِالمَكَارِمِ فِتْيَانُ
هُمُ سُطُورُ العُلَا ... وَيُوسُفُ بنُ القَاسِمِ عُنْوانُ[١]

نعم، لقد رَسَّخَ الشعراء هذه الفكرة حول سلا وأسيادِها بني عشرة فأصبحت هذه المدينة المغربية الصغيرة عنوانًا للكرم الذي استمدته من كرم أربابها العشريين، حتى غدت لا تطاق، ولا يحسن البقاء فيها وهم خارجها. هذا ما أكده صاحب قلائد العقيان في خبر أورده عن أبي محمد عبد الحق بن عطية، يقول فيه: «وحلَّ بسلا، والفقيه الأجل أبو العباس –فخر بني القاسم، وفخر الأعياد والمواسم، الذي تهمي من يديه للندى سحاب تَكِفُ، وتطوف بكعبته الآمال وتعتكف– غائب عنها، فلم يُنِخ فيها عيسه، ولم يرَ تخييمه بها وتعريسه، ورحل من ساعته، وقال شعرًا أخذ الناس في إشاعته وإذاعته، وهو:

يَا صَاحِبَيَّ انْزِلَا قَصْرَ الحِمَى فَسَلَا ... أَنَّى سَلَا المَجْدُ عَنْ أَنْ تَحْتَوِيهِ سَلَا
كَأَنَّمَا الرَّبْعُ لَمَّا غَابَ أَحْمَدُهُ ... مَنَازِلٌ ظَلَّ عَنْهَا البَدْرُ مُنْتَقِلَا
جَادَ الزَّمَانُ بِلُقْيَا مِنْكَ سُرَّ بِهَا ... طَوْرًا، وَسَاءَ بِذَاكَ العَهْدِ إِذْ بَخِلَا

---

(١) السابق، ص ٢٩٩.

فَاسْمَع مُنَاجَاةَ نَفْسٍ مِنْ أَخِي ثِقَةٍ مَضَى تُحَمِّلُهُ مِنْكَ النَّـوَى غُلَلَـا
وَعُدْ إِلَيْهَا أَبَا العَبَّاسِ تَحْـكِ بِهَـا مَرَاتِبَ الشَّمْسِ لَمَّا حَلَّتِ الحَمَلَـا
لَا زِلْتَ فِي عِقْدِهَا وُسْطَى وَلَا عَدِمَتْ مِنْكُمْ حُسَامًا يُبَاهِي حَوْلَهُ حُلَلَـا[1]

هكذا تصبح سلا لدى كل شاعر لا قيمة لها من دون أسيادها العشريين فهم بدورها، وواسطة عقدها، وسيوفها التي تباهي بها، وخروجهم منها سلوة للمجد عنها، وانتقال للبدر منها. فمخيلة الشعراء احتفظت لهذه المدينة بالقيمة المعنوية في ظل وجود زعمائها من بني القاسم، فإن خرجوا منها، وفارقوها تهوي مكانتها في نفوسهم، فلا يؤمها شاعر، ولا يُجِلُّهَا أديب. وعندما عقد الأديب الكبير لسان الدين بن الخطيب مفاخرته بين سلا ومالقة أكد هذه الحقيقة لبني عشرة، فقال: «وسلا المسكينة لا ترجو لعشرتها، إلا ابن عشرتها»[2]. ولسان الدين يقرّ هذه الحقيقة بعد قرنين من زوال هذه الأسرة النبيلة، ليؤكد لنا مدى ارتباط سلا ببني عشرة، وتأصيل هذا الارتباط في نفوس المغاربة الذين عاش بينهم هذا الأديب بين الأعوام (٧٦٠هـ) و(٧٦٣هـ)، حتى أصبحت من الحقائق التي تتناقلها الأجيال إلى زمان ابن الخطيب.

وإن كانت مدينة سلا قد اكتسبت من إقامة العشريين فيها شهرة

---

(١) قلائد العقيان، ص٦٥٩، ص٦٦٠.

(٢) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس مجموعة من رسائله، للدكتور أحمد مختار العبادي، طبعة مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ط، ١٩٨٣م، ص ٦٥.

بين الشعراء، دعتهم إلى حبها وذكرها في أشعارهم، فإن هذه المدينة أكسبت بني عشرة صفة السيادة، وجعلت كثيرًا من مدَّاحهم يتناولون نسبهم الزاكي وشرفهم وكرم أصلهم؛ إذ عُرِفَتْ هذه السيادة فيهم من جدهم عشرة الذي كان من أمراء المغرب على ما ذكرنا، وهو الذي أسس هذه المدينة، أو جدد بناءَها، فأصبح السيد فيها، وأورث أبناءه وأحفاده من بعده هذه السيادة. وفي سيادتهم يقول ابن حمديس الصقلي:

لَقَدْ بَهَرْت شُهْبَ الدَّرَارِي مُنِيْرَةً مَآثِرَ مِنْكُمْ لَا يَكَاثِرُهَا الرَّمْلُ
وَرِثْتُمْ تُرَاثَ المَجْدِ مِنْ كُلِّ سَيِّدٍ عَلَى مَنْكِبَيْهِ مِنْ حُقُوق العُلَا ثِقْلُ
فَمِنْ قَمرٍ يُبْقِي عَلَى الأُفْق بَعْدَهُ هَلَالًا وَمِنْ لَيْثٍ خَلِيْفَتُهُ شِبْلُ[1]

وفي علي بن القاسم يقول ابن سوار الأشبوني:

إِنَّ مِنْ بَعْدِ بَنِي القَاسِمِ لَا أَحَدٌ يَمْلأُ عَيْنًا مِنْ جَوَادِ
نَسَبٌ مُطَّرِدٌ مِنْ شَرَفٍ كَكُعُوبِ الرُّمْحِ ذَاتِ الإِطِّرَادِ[2]

ويكرر ابن سوار المعنى ذاته في مدح ابن علي أحمد، فيقول له:

كَذَاكَ مَضَتْ فِي السَّالِفَاتِ جُدُودُهُ كَمَا مَرَّ كَعْبُ الرُّمْحِ مُطَّرِدًا كَعْبَا[3]

وعلى كثرة حديث الشعراء عن كرم نسبهم، وشرف معدنهم، فإنه

(١) ديوان ابن حمديس الصقلي، ص ٥٥٨.
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨١٩.
(٣) السابق، ج٢، ص ٨٣٠.

لم يأت بما توقعناه من حسم الجدل الدائر حول انتمائهم لآل المدبر، فلو أن شاعرًا واحدًا فقط مدحهم بانتسابهم لهذه الأسرة، لقطع الشك لدى كل من ساوره شك في نسبهم الفارسي، ولأزال إبهامًا قديمًا علق بهم وبانحدارهم من نسب أعجمي، بل جاء الشعر ليزيد الإبهام إبهامًا؛ إذ نجد الأعمى التطيلي عندما مدح يحيى بن علي في إحدى موشحاته جعل جده قسريًّا، فقال:

فَلَمْ يَمُتْ عَلِيٌّ وَأَنْتَ فِي الحَيَاةِ
فَجَدُّكَ القَسْرِيُّ مُقَاتِلُ العُدَاةِ
يُنْمَى إِلَى سُلَالَهْ وَقَدْ وَرِثُوا عن الجُدُودِ

شَرَفَ المَفْخَرْ هُمْ الدَّارِي في السُّعُودِ بَلْ هُمْ فَخْرْ[1]

فهل يقصد التطيلي نسبتهم إلى قسر بن عبقر بن يعرب بن قحطان قوم خالد ابن عبد الله القسري والي هشام بن عبد الملك على مكة؟ أو إن التطيلي يريد بالقسري شيئًا آخر؟ هذا ما لم توضحه الموشحة، ولعله أراد بالقسري المعنى اللغوي لقسر وهو الغلبة كما يقول ابن منظور في اللسان[2].

وإن لم يكن الشعراء قد أفصحوا عن نسب هذه الأسرة السلاوية في شعرهم، فإنهم بنوا صروح الشرف والعلا والمجد لهم؛ إذ طوقوهم بما

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي، ص ٣٠٣.

(٢) لسان العرب، مادة: (ق س ر).

يوحي ويلائم هذا النسب الشريف من صفات تشهد لهم بالسؤدد، كقول ابن بقي:

مِنْ أَجْلِ تَشْرِيفِكُمْ بالجُودِ أَرْضَ سَلَا ... مَاتَ الحَسُودُ بِنِيرَانِ الهَوَى صَالِ
فأَصْبَحَتْ مِن تَحَلِّيهَا بِسُؤْدَدِكُمْ ... كَالقَوْدِ أَعْلَمْتَهُ مِنْ بَعْدِ إِغْفَالِ
وَقَدْ وَرِثْتَ عَنِ القاضِي أَبِيْكَ عُلًا ... أَضحَى قَسِيْمُكَ فِيهَا صِنْوُكَ الغَالِي
وَكُلُّكُمْ سَيِّدٌ يُنْمَى إِلى نَفَرٍ ... شُمُّ الأُنُوفِ كُفَاةٍ غيرَ أَكْفَالِ
تَنَافَسُوا فِي مَعَالِيْهِم كَأَنَّهُمُ ... كُعُوبُ رُمْحٍ مِنَ الخَطِّي عَسَّالِ[1]

فهذه سلا لا تتحلى إلا بسؤدد بني عشرة الذين ورثوا العلا من أبيهم علي، وتنافسوا فيه ككعوب الرمح، يؤجج هذا التنافس في نفوس أبناء هذه الأسرة سيادتهم، وانتماؤهم إلى شم الأنوف ذوي الكفاءة.

أما شاعرهم ابن سوار فيثبت لهم المجد والعلا بأسلوب طلبي، فيدعو الله أن يرعى فيهم ذمة المجد والعلا؛ إذ لا خَلْقَ أرعى منهم لذممها، فيقول:

فَمَا أَكْثَرَ المُثْنِي عَلَيْهِم سَجِيَّةً ... وَمَا أَشْبَهَ النُّعْمَى بِطَوْقِ حَمَامِ
رَعَى اللهُ فِيْكُمْ ذِمَّةَ المَجْدِ والعُلَا ... فَلَا خَلْقَ أَرْعَى مِنْهُمُ لِذِمَامِ[2]

وفي أبي العباس أحمد يقول الأعمى التطيلي:

إِذَا سَمِعَتْ أُذْنَاهُ حَيَّ عَلَى العُلَا ... فَلا الجُودُ مَتْرُوكٌ وَلَا البَأْسُ تَارِكُ

(١) ديوان ابن بقي الأندلسي، ص ١٠٦.
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨٢٤.

وَإِنْ عَلِقَتْ كَفَّاهُ حَبْلَ سِيَادَةٍ فَلِلَّهِ مَسْمُوكٌ بِهِ المَجْدُ سَامِكُ[1]

والحق أن الشعراء الذين اتصلوا بهذه الأسرة ما تركوا فضيلة ولا منقبة يمدح بها إلا وأثبتوها لرجال بني عشرة علي وأبنائه، بل كرروا المعاني نفسها في مديحهم، مما يؤكد اعتقاد الشعراء صدق اتصافهم بهذه السجايا، وامتلاء نفوس الشعراء منها، حتى فاضت قرائحهم بها، فما يصدق على كبيرهم علي بن القاسم من الكرم والجود، وحسن القضاء، والسيادة السلاوية، والنسب الشريف، يصدق على أبنائه أحمد، ويوسف، ويحيى، ويستثنى من ذلك كله ابنه حسن؛ إذ لم نجد من الشعراء من اتصل به وخصه بمديح أو رثاء، أو قال فيه شعرًا من أي غرض كان، ويبدو أنه كان عابدًا زاهدًا لا هم له بالشعر والشعراء، فلم يتوجه إليه منهم أحد، وقصروا شعرهم على من ذكرنا من أفراد هذه الأسرة.

الرثاء:

لو كان باعث المدح الحب أو الإعجاب أو الطمع، فإن الرثاء باعثه الحزن الممض على فقد الكرام. وفي معظم أحواله لا يتصل بطمع، ولا يشوبه نفاق؛ إذ إن المرجو منه إثبات التفجع والأسى، وإظهار خسارة المجتمع بموت من يركن إليه في الشدائد والملمات، ويكفي الحاجة، ويعين في النائبة، فقوله لا يرتبط بطمع، ولا يترتب عليه عطاء، وإنما ينهض على ما ترسب في نفس قائله من ذكرى طيبة للمتوفى، وألم فرقته.

وقد علمنا أن الشاعر ابن وَلَّاد وضع في رثاء علي بن القاسم

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي، ص ١١٩.

مجموعًا شعريًّا، لكن هذا المجموع لم يصل إلينا، فبقى لنا من رثائهم ما قاله شاعر بلاطهم محمد بن سوار الأشبوني في علي وبعض ولده، وهي مراثٍ قليلة يظهر فيها ابن سوار جزعه وحزنه على فراق أفراد هذه الأسرة، فيقول في رثاء علي بن القاسم:

العَيْشُ بَعْدَكَ يَا عَلِيُّ نَكَالُ ... لَا شَيءَ مِنْهُ سِوَى العَنَاءِ يُنَالُ

يَا عَثْرَةً عَثَرَ الزَمَانُ بِأَهْلِهِ ... لَيْتَ الزَّمَانَ مِنَ الزَّمَانِ يُقَالُ

إلى أن قال:

أَبْكِيْكَ بِالدَّمِ لَا بِدَمْعِيَ إِنَّهُ ... يَبْكِي سِوَايَ بِهِ وَذَاكَ مُحَالُ

دُنْيَا ظَفِرْتِ وَمَا مَتَاعُك كُلُّهُ ... إِلَّا سَرَابٌ يَضْمَحِلُّ وَآلُ

قَدْ كُنْتُ مَشْغُوْلًا بِهِ مُتَوَقعًا ... وَلِذِي الوَفَاءِ بِغَيْرِهِ أَشْغَالُ

فَالآنَ هَا أَنَا لَا أُبَالِي عَنْ أَسَىً ... وَقَعَ التَّوَقُّعُ فَاسْتَرَاحَ البَالُ

قَدْ كُنْتَ آمَالِي الَّتِي أَنَا طَالِبٌ ... جَهْدِي وَمِتَّ فَمَاتَتْ الآَمَالُ[1]

لا غرابة في أن يتسم رثاء ابن سوار بندب حار على فقد زعيم هذه الأسرة العشرية؛ إذ تفصح الأبيات عن مكانة علي في نفس الشاعر، وتوحي بتبدل حياته، وانقلابها رأسًا على عقب؛ إذ تستحيل نكالًا ليس فيها إلَّا العناء، وتتبدد الآمال وتموت بموت المؤمل عليه، فيبقى للشاعر البكاء بالدم بدلًا من الدمع، لعظم المصيبة التي حصلت له لفقد معينه.

ويظهر من مراثي ابن سوار سيطرة الندب عليها، فهي السمة

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨٢٧.

البارزة فيها، وهي دلائل تقدير هذا الشاعر لهذه الأسرة، وتعليقه آماله بهم، فما أن يُنْعَى له منهم فرد حتى يأخذ ابن سوار بندبه، وإظهار الأسى عليه، مما يجعلنا نظن أن حياة الشاعر متوقفة على بني عشرة، فإن هلكوا هلك.

كما تأتي مراثيه مواساة للأسرة العشرية، التي آلَمَهَا فَقْدُ فرد منها، فقد جاء في شعره أبيات يرثي فيها شخصًا اسمه محمد من أفراد هذه الأسرة –قد يكون من أبناء علي أو من أبناء أبنائه– ويظهر أنه مات صغيرًا، فقال في ندبه ابن سوار:

وَنَاعٍ نَعَى وَالقَلْبُ كَالقَلْبِ خَافِقٌ ... مُرَوعٌ وَمِما رَابَنِي لَمْ أُصَدِّق
بَكَتْ رَحْمَةً لِي عَينُ كُلِّ غَمَامَةٍ ... وَسَاعَدَنِي نَوْحُ الحَمَامِ المُطَوَّق
فيَا مُزْنُ لَا تُؤْذِنْ بِتِسْكَابِ أَدْمُعِي ... فَلِي مَدْمَعٌ مِنْ لُجَّةِ الحُزْنِ يَسْتَقِي
فَلَولَا التِهَابُ النَّارِ مَا بَيْنَ أَضْلُعِي ... لَأَصْبَحْتُ فِي بَحْرٍ مِنَ الدَّمْعِ مُغْرِق
دَعُونِي أَشْكُو الدَّهْرَ لِلدَّهْرِ مُعْتِبًا ... عَلَى أَنَّنِي أَشْكُو إِلى غَيْرِ مُشْفِق
فَمَا فَوْقَ هَذَا الرُزْءِ رُزْءٌ وَإِنَّمَا ... رَمَى كَبِدَ العَلْيَا بِسَهْمٍ مُفَوَّق
مَضَى بِابْنِ عَشْرٍ كَابْنِ عَشْرٍ وأَرْبَعٍ ... فَهَلَّا هِلَالٌ مِثْلُ نُونٍ مُعَرَّق
مَضَى بِفَتَى تُزْرِي أَسِرَّةُ وَجْهِهِ ... بِضَوْءِ الصَّبَاحِ المُشْرِقِ المُتَأَلِّق[1]

هكذا هو ندب ابن سوار لهم دموع تسكب، ونيران تتقد، وشكوى إلى دهر لا يشفق، ورزايا تصيب من يحب من بني عشرة، حتى ليشعرنا أنه شريك لهم في هذه الفاجعة؛ لقربه منهم، وإحساسه بالانتماء لهم، وكأنه

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨٣٢.

فرد منهم.

وفي أبيات أخرى له يجعل ابن سوار فَقْدَ محمد رزية عمت آل دين محمد؛ أي عمت المسلمين كافة، فأحالت صباحهم من شدة الحـــزن كقطـــع الليل الأربد من شدة ظلامه، يقول ابن سوار:

مَا كُنْتُ أَعْلَمُ عِلَّةَ الزَّهْـــرِ النَّـــدِي حَتَّى ثَوَى فِي القَبْرِ جِسْمُ مُحَمَّدِ
خَطْبٌ ثَنَى وَجْهَ الصَّـــبَاحِ كَأَنَّـــهُ بالحُزْنِ من قِطَعِ الظَّلَام الأَرْبَـــدِ
وَرَزِيَّـــةٌ نَزَلَـــتْ بِـــآلِ مُحَمّـــدٍ خَصَّتْ وَعَمَّتْ آلَ دِيْنِ مُحَمَّـــدِ[1]

وإن كان الغالب على رثاء ابن سوار الندب، فإننا لا نعدم التأبين في مراثيه لهذه الأسرة، وهو تأبين لا يُخْرِجُ معاني المدح التي ذكرناهـــا مـــن حسابه، وإنما هو اجترار لها، وتأكيد عليها في حياتهم وبعد مماتهم، يقول ابن سوار في مرثيته لعلي بن القاسم:

كُنْتَ الصَّفُوحَ عَنِ المُسِيءِ وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا الجَمِيـــلُ لَـــدَيْكَ وَالإِجْمَـــالُ
حُطُّوا عَنِ الأَكْوَارِ قَدْ مَـــاتَ الَّـــذِي يَتَحَمَّلُ الأَعْبَـــاءَ وَهِـــي ثِقَـــالُ
مُـــذْ وُدِّعَ القَـــوَّالُ وَالفَعَّـــالُ مَـــا فِي الأَرْضِ قَـــوَّالٌ ولَـــا فَعَّـــالُ
وَتَهدَّمَ الجَبَـــلُ المُنِيْـــفُ فَزُلْزِلَـــتْ رُتَبُ العُلَا وَمِنَ الرِّجَـــالِ رِجَـــالُ
فَلَـــأَجْعَلَنَّ حَجِّـــي لِقَبْـــرِكَ إِنَّـــهُ لِلْخَيرِ فِيْهِ وللتُّقَـــى أَوْصَـــالُ[2]

فهذا التأبين قد شمل مناقب علي التي كان ابن سوار يمدحه بها في

(١) السابق، ج٢، ص ٨٣٣.
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨٢٧، ص ٨٢٨.

حياته من مثل الحلم وصفحه عن المسيء، وكرمه في تحمل الأعباء الثقال، والعلا الذي تزلزلت رتبه بموت السيد العشري. كما حملت الأبيات السابقة إعلانًا عامًّا من ابن سوار للناس شعراء وغير شعراء بِأَنْ لا رحيلَ لممدوح بعد موت كبير هذه الأسرة؛ إذ لم يعد في الدنيا قوَّالٌ وفَعَّالٌ يرحل إليه بعد موته.

وفي إحدى مراثيه يرثي ابن سوار قاضيين لم يصرح باسميهما، وتحملنا سيرته واتصاله بأسرة بني عشرة على الظن أنه قالها في فردين منهم؛ إذ لم يتصل ابن سوار بقضاة غيرهم، إلا ما كان من استنجاده بقاضي الجماعة أبي عبد الله بن حمدين عندما أسره النصارى(١)، ويظهر من قصيدته التي مدحه بها أنها سابقة على استنجاده بعلي بن القاسم الذي خلصه من أسره، فلزمه الشاعر وسَخَّرَ شعره له، في حين تلاشى ذكر ابن حمدين من شعره، يقول ابن سوار في تأبينهما:

مِنْ قَاضِيَينِ مُوَفَّقَيْنِ كَأَنَّمَا ... هَذَا شُرَيْحٌ فِي القَضَاءِ وَذَا عَلِي

لَمْ يَعْدُوا نَهْجَ السَّبِيلِ وَإِنَّمَا ... [.....]

بِنَقِيبةٍ مِن صِحَّةٍ، وَسَجِيَّةٍ ... مِنْ رَوْضَةٍ، وسَكِيْنَةٍ مِنْ يَذْبُلِ

وَرَوِيَّةٍ مِنْ حِكْمَةٍ، وَقَضِيَّةٍ ... مِنْ فِطْنَةٍ، وبَدِيْهَةٍ مِنْ مُنْصُلِ(٢)

هذه الملاءمة بين القاضيين المرثيين، وصفات رثائهما، ديدن ابن سوار حتى في أماديحه لهذه الأسرة، فهو يجانس بين الممدوح أو المرثي

---

(١) السابق، ج٢، ص ٨١٧.

(٢) السابق، ج٢، ص ٨٣٣.

وما يناسبه من صفات، فنجد في رثائه القاضي بصحة الرأي، وسكينة كالجبل، والتروي في أحكامه وعدم العجلة بها، وفوق ذلك فطنة وبديهة حادة. وهذه الصفات كلها تجعل منه قاضيًا موفقًا، ولأن ابن سوار رثى قاضيين، فقد شبه أحدهما بشريح القاضي والآخر بعلي بن أبي طالب، ووجه الشبه حسن القضاء. وفي تشبيه قُضاة هذه الأسرة بشريح وعلي – على حد تعبيره– استلهام شخصيات التراث وتوظيفها في شعره، وهي عادة لابن سوار ذكرنا طرفًا منها في مديحه لبني عشرة، وهو توظيف يعتمد على عرض ثقافة الشاعر، وإبراز إحاطته بالشخصيات العربية التي برعت ونبغت بإتقان عمل ما كشريح وعلي بن أبي طالب وإجادتهما للقضاء.

وقد حاول الأشبوني أن يتلمس لنفسه عزاءً وتصبيرًا على فقد رجال هذه الأسرة، لكن مرارة الفقد شغلته بالندب والتأبين، فَخَفَتْ صوت العزاء في مراثيه؛ إذ لم يرد إلا في بيتين اثنين فقط، وفيهما لم يطق الشاعر صبرًا ولا عزاءً، فأبان في أحدهما أن الصبر جميل، ولكنه لم يجمل، وفي الآخر تعزى بأبي العباس أحمد بن علي بن القاسم الذي ورث عن أبيه السيادة والمكانة، وآلت إليه خطة القضاء في بلد العشريين سلا، يقول الأشبوني:

الصَبْرُ أَجْمَلُ عِنْدَ كُلِّ مُلِمَّةٍ لَكِنْ عَلَى فَقْدَيْهِمَا لَمْ يَجْمُلِ[1]

ويقول لأبي العباس أحمد بعد موت أبيه:

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨٣٣..

أَيْنَ العَــزَاءُ فَقَــدْ أُدِيْــلَ بِأَحْمَــدٍ   دُوَلُ الأَفَاضِلِ بِــالبَنِيْنِ تُــدَالُ[1]

والحق أن مراثي ابن سوار في بني عشرة تكشف صدق عاطفتــه تجاههم، وتقدير كل ما قدموه له، فصنيعهم معه حفظه الشاعر، وأبداه في مدحهم ورثائهم؛ لذا قال مراثيه مواسيًا لهم في مصابهم، وشاكرًا إنعــامهم عليه. وإن كان الأشبوني قد صرح بفضلهم عليه في مدائحــه، فلــم يفتــه التصريح به في مراثه، فها هو يثبته لعلي بن القاسم في مرثيتــه اللاميــة بقوله:

وَإِذَا الأَيَادِي لَمْ تَكُــنْ مَشْــكُورَةً   لِلْمُنْعِمِــيْنَ فَإِنَّهَــا أَغْلَــالُ[2]

ومن مشاركة ابن سوار لبني عشرة في أحزانهم، ومواساتهم فيما يطرق من مصائب رثاؤه لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين[3]، مع علمنــا بأنه لم يتصل به ولم يفد عليه، ولكن رثاءه له إكرامًا لشخصــه، وتقــديرًا لمكانته في نفوس العشريين، وبهذا يكون رثاء ابن سوار للأسرة العشرية، ولغيرهم ممن أحبوه من الرجال؛ تسخيرًا لموهبته الشعرية في تسكين آلام بني عشرة.

الهجر والفراق:

قد يقع بين الشاعر وممدوحه ما يقطع صلتهما ببعضهما، ولا نكاد نعرف شاعرًا لزم ممدوحًا واحدًا فقط، وفي هذا ما يــدل علــى المزاجيــة

---

(١) السابق، ج٢، ص ٨٢٨.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ج٢، ص ٨٢٨.

(٣) السابق، ج٢، ص ٨٣١.

الحادة التي يعيشها بعض الشعراء. وليس بعيدًا عن عصر بني عشرة ما كان بين أبي الطيب المتنبي وبين ممدوحه سيف الدولة الحمداني، فبعد اتصال دام سنوات فارق المتنبي بلاط سيف الدولة، ولحق بكافور الإخشيدي حاكم مصر، ونقل قلائد مدحه إليه، على أن فراق كريم باذل أمر صعب على نفس أي شاعر، إلا أنه واقع في الأخبار والأشعار، وصرح به غير شاعر؛ ندمًا على فراق من كان يحظى لديهم بالإجلال والتقدير.

وبنو عشرة من هؤلاء فراقهم ندم الدهر، وهجرهم تعاسة الزمن، وقد وعى ذلك بعض مدَّاحهم كابن بقي الذي يقول ليحيى بن علي:

أُهْدِي لَـهُ قَرِيضِـي كُـلَّ شَـارِدَةٍ ... رُمْحٍ لِأَعْزَلَ، أَوْ حَلْـيٍ لِمِعْطَـالِ
وَحَـاشَ للهِ أَنْ أَرْضَـى بِـهِ بَـدَلًا ... وَالمَرْءُ مَا بَيْنَ تَقْرِيضٍ وإِبْـدَالِ
أَوْ أَنْ أَكُونَ وَأَيْدِي العِيْس تُوضِعُ بِـي ... إِلَّا إِلَى قَصْدِهِ نَصِّي وإِرْقَـالِي[1]

لا يرضى ابن بقي بديلًا ليحيى بن علي، ولا يتخيل نفسه يقود العيس لغيره فقد أناخ بساحة كريم جواد، وفَقِهَ أن فراقه والرحيل إلى غيره خسارة عظيمة. ولكن غير ابن بقي من الشعراء رغب في الرحيل، وأراد التغيير فلم يغنم من رحيله، وندم على فراق العشريين، وأسبل الدموع الغزار على تفريطه بقرب هذه الأسرة، هذا ما صنعه محمد بن سوار الأشبوني؛ حيث رحل من بلاط العشريين فترة، وانتقل إلى العيش بتلمسان، فلم يطب له المقام بها، فعض أصابع الندم على ذلك، وقال أشعارًا تبين ندمه وحزنه على هجره بني عشرة وفراقهم.

---

(١) ديوان ابن بقي الأندلسي، ص ١٠٦.

لم نجد في شعر ابن سوار وأخباره سببًا واضحًا لفراقه لسلا بـــلاط علي بن القاسم وأبنائه، ولا نظن أن فراقه لهم كان لسبب سوى ما يكـــون في نفوس الشعراء من حب الارتحال، ولو كان غير ذلك لأبانت أشعاره عن ذلك بحملها عتابًا أو اعتذارًا أو حتى هجاءً كما اعتدنا من بعض الشـــعراء، لكن ابن سوار اكتفى بإيضاح ندمه الشديد على فراق علي بن القاسم وسلا، فيقول في إحدى قصائده وقد بعث له بها من تلمسان:

أَعَلِيٌّ يَا ابْنَ القَاسِـمِ بـنِ مُحَمَّـدٍ ... بَيْنِي وَبَيْنَكَ عُـرْوَةٌ لَـا تُفْصَـمُ
رُدَّ التَحِيَّـــةَ مِثْـــلَ وِدِّي غَضَّـــةً ... إِنِّي عَلَيْكَ مَـعَ النَّسِـيْمِ مُسَـلِّمُ
وَلَقَـــدْ كَتَبْـــتُ وَأَدْمُعِـــي مُنْهَلَّـــةٌ ... وَالقَلْـــبُ فِيْـــهِ جَـــذْوَةٌ تَتَضَـــرَّمُ
أَمِنَ السَّوِيَّةِ أَنْ أَكُـونَ كَمَـا أَنَـا ... فَيَفُوزَ غَيْرِيَ بـالنَّعِيْمِ وَأُحْـرَمُ
وَاللهُ يَرْضَى عَنْكَ مِنْ حَكَـمٍ فَقَـدْ ... وَافَيْتَ حُكْـمَ اللهِ فِيْمَـا تَحْكُـمُ
إِنْ بِنْتُ عَنْـكَ وَلَـمْ تُـرِدْهُ فَإِنَّـهُ ... بَعْضِي لِبَعْضِكَ في فِراقِكَ يَخْصِمُ
وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى فِرَاقِ سَـلَا كَمَـا ... ضِعْفَ النَّدَامَةَ حِيْنَ أُهْبِطَ آَدَمُ[1]

وعلى ما تبينه هذه الأبيات من حزن ابن سوار على فـــراق ســـلا وعلي بن القاسم وندمه على ذلك، فإنها تفصح أيضًا عن أن رحيل الشاعر كان باختياره، وأن علي بن القاسم لم يرده، مما صبغ أشـــعاره فـــي هـــذه الفترة بصبغة الحزن، حتى نرى دموعه منهلـــة وقلبـــه يتضـــرم، وندمـــه مضاعف على فراق هذا السري.

ولا نزال نرى ابن سوار يبدئ ويعيد في معانيه وأساليبه، فيحرص

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨٢٠.

على ذكر سلا، وعدل علي بن القاسم، وندامته التي يستلهم لها قصة أبي البشر آدم –عليه السلام– حين أهبط من الجنة، لأكله من الشجرة التي نهاه رب العالمين عن الأكل منها، فهي معاني وأساليب تكررت في مدائحه ومراثيه، وها نحن نراها في شعره الحزين الباكي على فراق بني عشرة.

ومن قصيدة أخرى أرسل بها لعلي بن القاسم من تلمسان يمدحه فيها بالكرم، وحبه لسلا؛ لكونه منها، ويستلهم له شخصية تراثية أخرى هي شخصية الخصيب بن عبدالحميد صاحب خراج مصر في عصر هارون الرشيد، وممدوح أبي نواس، وهي من المعاني المكرورة في شعر ابن سوار[1]، حيث يقول لكبير العشريين:

أَمِثْلُ عَلِيٍّ تَطْلُبُ العَينُ أَنْ تَرَى ... وَمِثْلُ عَلِيٍّ في المُلُوكِ غَرِيبُ
فَتًى يَهَبُ الدُّنْيَا وَيَرْتَاحُ لِلنَّدَى ... كَمَا اهْتَزَّ غُصنُ البَانِ وَهُوَ رَطِيبُ
وَتَأْتِي عَطَايَاهُ اطِّرَادَ خِصَالِهِ ... كَمَا اطَّرَدَتْ للسَمْهَرِيِّ كُعُوبُ
وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَضْرَبْتُ عَنْ مَدْحِ غَيْرِهِ ... فَلَيْسَ لَهُ فِي العَالَمِينَ ضَرِيْبُ
أُحِبُّ سَلَا مِنْ أَجْلِ كَوْنِكَ مِنْ سَلَا ... فَكُلٌّ سَلَاوِيٍّ إِلَيَّ حَبِيْبُ
لَصَيَّرْتُهَا مِصْرًا فَنَيلُكَ نِيْلَهَا ... وَكَفَّاكَ بَطْحَاهَا وَأَنْتَ خَصِيبُ[2]

وقد يستشف من هذه الأبيات محاولة ابن سوار استرضاء علي بن القاسم؛ إذ جعله ملكًا، وجعل مستقر سيادته سلا بفضله تناهز مصر،

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨٢٧.
(٢) السابق، ج٢، ص ٨٢٦.

والجامع بينهما نَيْلُ علي الذي يشبه في كثرته نِيْلَ مِصْر، وهو الخصيب الذي عرف بالكرم وإغداقه على الشعراء. لكن حزن ابن سوار واسترضاءه لعلي بن القاسم حال دونهما موت ابن القاسم على ما يبدو؛ إذ نجد الشاعر يرسل قصائده من تلمسان موطنه الجديد بعد سلا لأبي العباس أحمد بن علي، فيقول له:

وَهَبْكَ مَلَكْتَ الشَّمْسَ والبَدْرَ في يَدِي ... وَسُقْتَ إِلَى جَنْبَيهِمَا الأَنْجُمَ الشُّهُبَا
إِذَا لَمْ أُعَلِّقْهَا عَلَى جِيْدِ أَحْمَدٍ ... فَلَا جِيْدَ فِي الدُّنْيَا يَكُونُ لَهَا حَسَبَا
صَبَا بالغَوَانِي مَنْ صَبَا وَهْوَ لَمْ يَزَلْ ... بِبِنْتِ المَعَالِي هَائمًا كَلِفًا صَبَّا
فَتَىً يَهَبُ البِيْضَ الكَوَاعب كالدُّمَى ... وَبَيْضَ الظُّبَا السُّمْرَ والضُمَّرَ القُبَّا
لَقَدْ وَهَبَ اللهُ الجَمَالَ لِأَحْمَدٍ ... وشَرَّفَ مِنْهُ الخُلْقَ وَالخُلُقَ العَذْبَا[1]

هذه الأبيات تؤذن بصفحة جديدة فتحت من حياة ابن سوار؛ إذ أُعْتق من حزنه على فراق علي بن القاسم بموته، ولعل مرثيته اللامية تتوسط بين شعره الحزين على فراق علي وبين مدائحه في ولده أحمد؛ إذ نلمح فيها ما يبشر بانتقال السيادة العشرية في سلا إليه، يقول:

أَيْنَ العَزَاءُ فَقَدْ أُدِيْلَ بِأَحْمَدٍ ... دُوَلُ الأَفَاضِلِ بالبَنِين تُدَالُ[2]

فلا شك عندي في أن ما قاله ابن سوار من مدائح في أحمد بن علي أتت في فترة اتصاله الثانية بالعشريين، وهي فترة أعقبت رحيله من

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨٣٠.
(٢) السابق، ج٢، ص ٨٢٨.

سلا إلى تلمسان، ووفاة كبير هذه الأسرة، فقد عاد شاعرهم معزيًا بفقيدهم، ومحاولًا إعادة المياه إلى مجاريها مع ولده الذي أصبح سيد سلا وصاحب قضائها، مما أسفر عن مدائحه في أحمد بن علي. ولعل تلك المراثي التي لم نتبين فيمن قيلت تكون في أحفاد علي من ولده أحمد، لا سيما مرثيته في محمد الذي مات صغيرًا.

التهاني:

التهنئة ما كانت على أحوال يُسَرُّ بها الإنسان مما يطرأ عليه من الأمور التي فيها تجدد نعمة أو دفع مصيبة، كالتهنئة بالزواج، وبالمولود الجديد أو بالخلافة، أو ما شابه ذلك من المناسبات التي لا ارتباط لها بزمن معين، وإما أن تكون التهنئة في أزمان معينة كالأعياد والأعوام والأيام(١).

ويقسمها النويري إلى قسمين في قوله: «والتهاني تنقسم إلى قسمين وتنحاز في وجهتين: خصوص وعموم. فالخصوص هو ما يتعلق بالرجل من منصب يليه، ونعمة تواليه، وولد رزقه، وشفاء من مرض أقلقه وأرّقه، وقدوم من سفر، وزواج قضى به الأرب والوطر. والعموم هو ما يتعلق بالجمهور، ويتساوى فيه الملك والمملوك والآمر والمأمور: من انصباب غيث عم الربا والوهاد، وجريان نيل شمل بريه البلاد وآمن العباد، وهزيمة عدو زاد في عدوانه وتمادى في طغيانه، وفتوح حصن أمن أهله

(١) شعر التهاني في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، للباحث: أحمد محمد الخزاعلة، رسالة ماجستير، مخطوطة، جامعة آل البيت، الأردن، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص ٤.

بتشييد أركانه وإتقان بنيانه»[١]. ويظهر من تقسيم النويري لها إلى عام وخاص، أن منها ما يكون للسادة والأشراف، ومنها ما يكون للناس عامة، ومن هذا التقسيم فرعها بعض الدارسين إلى سياسية ودينية واجتماعية[٢]. ويندر أن تجتمع هذه كلها لرجل، وقد يجتمع بعضها لأحدهم، إن كان من ذوي المكانة في مجتمعه وفي مصره الذي يعيش فيه.

وللشعراء الذين صحبوا هذه الأسرة تهاني ليست بالكثيرة وجهوها لأفراد هذه الأسرة لعل أشهرها تهنئة ابن سوار لعلي بن القاسم بعد عودته من لقاء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وفيها يظهر الشاعر مكانة ممدوحه من زعيم دولة المرابطين، ويثبت له القدر العالي الذي يتبوأه علي بن القاسم، حتى كَسَّدَ أعداءه ومبغضيه، الذين لم يفتؤوا تأليب السلطان عليه، ومع هذا يتجاوز عنهم، ويغفر لهم، لأنه واسع الفضل طيب الأصل كريم الفرع، يقول ابن سوار:

مَضَيْتَ بِوَجْهِ السَّعْدِ وَهوَ طَلِيقُ ... وَأُبْتَ بِثَوبِ النُّجْحِ وَهوَ يَرُوقُ
لَقِيتَ أَمِيْرَ المُسْلِمِيْنَ مُقَرِبًا ... كَمَا يَتَلاقَى شَائِقٌ وَمَشُوقُ
رَآكَ وللإِسْلَامِ نُصْحُكَ كُلُّهُ ... وَعَهْدُكَ في ذَاتِ الإِلَهِ وَثِيقُ
تَلَقَّاكَ بالبِشْرِ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ ... فَقَالُوا: أَبٌ حَانٍ عَلَيْهِ شَفِيقُ

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري، تحقيق: د. يحيى الشامي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط، د. ت، ج ٥، ص ١٢٣.

(٢) شعر التهاني في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص ٥ وما بعدها.

ومنها:

وَلَمَّا طَغَى قَوْمٌ وَفَـرْتَ لُحُـومَهُمْ ... فَعَاجَ فَرِيْـقٌ وَاسْـتَقَامَ فَرِيْـقُ
وَضَلَّتْ حُلُـومٌ بِالجَهَالَـةِ مِثْلَمَـا ... أَضَلَّ سُـوَاعٌ مَعْشَـرًا وَيَعُـوقُ
وَجَاءُوكَ بِالمَكْرِ الكَرِيـهِ وَإِنَّمَـا ... بِصَاحِبِه المَكْرُ الكَرِيـهُ يَحِيـقُ
أَرَاهُم مَكَانَ الفَضْلِ مِنْكَ فَرُوعِّـوُا ... كَمَا انْتَشَقَتْ رِيْحُ الغَضَنْفَرِ نوقُ
وفَرُّوا وَلَولا حُسْنُ رَأْيِـكَ فِـيْهِمُ ... لَمَا حَمَلَتْهُم بَعْـدَ ذَلِـكَ سُـوقُ
فَلَا عَدِمُوا مِنْكَ الَّذِي عَهِدُوا فَمَـا ... بِغَيْرِكَ غُفْـرَانُ الـذُّنُوبِ يَلِيـقُ
تَوَسَّعْتَ فَضْلًا فِي وَلِـي وَحَاسِـدٍ ... وَلَمْ يَكُ فِي بَاعِ المَكَارِمِ ضِـيقُ
كَرُمْتُمْ فُرُوعًا فِي المَعَالِي حَمِيْـدَةً ... وَطَابَتْ أُصُولٌ مِنْكُمُ وعُـرُوقُ[1]

قد تشير هذه التهنئة بسياسيتها، وأن لقاء كبير العشريين مع أمير المسلمين لقاء سياسي، لكن الحقيقة أن لقاء قاض بأمير المسـلمين لقـاء ديني، لا سيما أن يوسف بن تاشفين رجل فقيه عابد زاهد؛ لذلك نظـن أن هذا اللقاء قد تناول إبقاء علي بن القاسم على خطة قضاء سلا، التي حاول مبغضوه وحاسدوه أن يسلبوها منه، وهذا ما أغرى ابن سوار أن يضـمن آيتين من كتاب الله في قوله تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿تَذْهَبُونَ ۝٣٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٣٧ لِمَن﴾[3]. وكلا الآيتين يتضمن تفسيرهما معنى صرف الشـيء علـى غيـر وجهـه

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨٢٥.
(٢) سورة نوح: الآية ٢٣.
(٣) سورة فاطر: من الآية ٤٣.

بالباطل، وهذا ما كان في نية الوشاة الذين سعوا بعلي إلى أمير المسلمين، لكنه عاد آيبًا من لقائه وقد فاز بتأكد يوسف بن تاشفين بنصحه للإسلام، وقربه من رب العالمين، بحيث لا يستحق أحد قضاء سلا غيره، فكبت هذا الأمر خصومه، مما أوجب تهنئة ابن سوار له بذلك.

ومما قُدِّمَ لهذه الأسرة من التهاني أيضًا، ما قاله كثير من الشعراء لأحمد بن علي عندما أنهى بناء قصره بسلا؛ إذ وصفه الشعراء، وهنأته به ودعت له، وكان بالحضرة حينئذٍ الوزير أبو عامر بن الحمارة، ولم يكن أعد شيئًا، ففكر قليلًا، ثم قال:

يَا أَوْحَدَ النَّاسِ قَدْ شَيَّدْتَ وَاحِدَةً ... فَحُلَّ مِنْهَا مَحَلَّ الشَّمْسِ في الحَمَلِ

فَمَا كَدَارِكَ فِي الدُّنْيَا لِذِي أَمَلٍ ... وَلَا كَدَارِكَ فِي الأُخْرَى لِذِي عَمَلِ[1]

وابن الحَمَّارة شاعر وأديب أندلسي، وُصِفَ بأنه آخر الفلاسفة الحكماء المسلمين في الأندلس[2]، وفي بيتيه السابقين ما يؤكد ذلك؛ إذ نجد النزعة العقلية والعلمية التي ينتهجها الفلاسفة واضحة فيهما، من خلال مقابلة الباني والمبني، فأبو العباس واحد لا مثيل له، وقصره فريد لا ند له، وكذلك صنع الشاعر بمقابلته الدار الدنيوية بالدار الأخروية، فقصر أحمد في الدنيا مفتوح لذي الآمال، وداره في الآخرة مرتفعة عالية؛ إذ لا منافس له بالأعمال الخيرة والبر، وبين هاتين المقابلتين تظهر ثقافة الشاعر الفلكية وجعله أبا العباس أحمد من طوالع السعد بحلوله كالشمس في الحمل. ولا

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٤، ص ١٣.

(٢) الإتحاف الوجيز، ص ٧٣.

يخفى اهتمام فلاسفة المسلمين بعلم الفلك ونبوغهم فيه، منذ بداية ترجمة كتبه عن الثقافة الهندية في العصر العباسي.

ومن المؤسف أننا لا نستطيع المضي قُدُمًا في دراسة شعر التهاني الذي قدمه الشعراء لهذه الأسرة؛ إذ لم يصل لنا منه إلا ما قاله ابن سوار وابن الحمارة، على تأكيد ابن بسام في الذخيرة أن كثيرًا من الشعراء هنأت أبا العباس أحمد بهذا القصر ووصفته، ولكن لم يصلنا من تهانيهم ووصفهم له شيء سوى ما ذكرنا.

وقد نأسف لضياع هذا العشر المهنئ لأفراد هذه الأسرة، ونعجب من قلة ما وصلنا منه، لكننا لا نعجب من قلة ما وصلنا من شعر قيل فيهم من غرض آخر كالعتاب مثلًا؛ إذ لم تصل إلينا منه سوى قصيدة واحدة فقط أُرسلت إلى أحمد بن علي من الوزير الكاتب أبي محمد بن القاسم، وجاء في خبرها ما نقله ابن خاقان في قلائد العقيان من قوله عن هذا الوزير: «ولما نفذ في أ مره ما نفذ، وانفصل من أمير المسلمين وانتبذ خيره في بلاد المغرب، فاختار سلا، واعتقد أنه يأنس فيها ويسلى، بمجاورة بني القاسم الذين غدوا بدور سمائها، وصدور أسمائها، فلما حَلَّها، انقبض عنه أبو العباس انقباضًا نعي عليه أقبح نُعِيَ، ونُسِبَ فيه إلى قلة الوفاء والرعي، وكان بينهما أيام وزارته، مودة محمودة التراخي، مشدودة الأواخي، واشتملت إذ ذاك على أبي العباس مساع أدجت مطلعه، وحَنَتْ على الوجد أضلعه، فجذب فيها أبو محمد بضبعه، وألقاه بين بصر العضد وسمعه؛ فلما وَرَدْتُ، مَشَيتُ إِلَيه، ونَقِمْتُ عَلَيهِ صُدُودَه وإيحاشه لمن كان

ودوده، وعرفته بحرماته، ووقفته على مواته، فاعتذر بما يخاف من أمير المسلمين ويحذر»[1].

هذا الخبر هو مناسبة أبيات العتاب التي قالها أبو محمد بن القاسم، ويظهر منه أنه صاحب فضل على أبي العباس أحمد زمن وزارته وكتابته لعلي بن يوسف بن تاشفين، فلما نزل عن منصبه وأقصاه الأمير المرابطي اختار سلا دار استقراره إلى جوار أحمد بن علي، لكنه تفاجأ منه بالصدود معتذرًا بما يخافه من أمير المسلمين، وكان الفتح بن خاقان نفسه مشى بينهما بالصلح والتذكير بفضل الوزير على أبي العباس، ويبدو أن مسعاه لم يفلح، فما كان من أبي محمد بن القاسم إلا أن عاتبه بقوله:

شَرُّ الجِيَادِ -إِذَا أَجْرَيْتَ- مُنْقَبِضُ ... مَا للوَجيهِ عَلَى المَيْدَانِ مُعْتَرِضُ
أَنَّى تُضَاهِيه فُرْسَانُ الكَلَام ومِنْ ... غُبَارِهِ فِي هَوَادِيْهِنَّ مَا نَفَضُوا
جَرَتْ عَلَى مُسْتَوى مَنْ طَبْعُهُ كَلِمٌ ... هِيَ المَشَارِبُ لَكِنْ مَا لَهَا فَرْضُ
كَأَنَّ مُنْشِدَهَا نَشْوَانُ مِنْ طَرَبٍ ... أَوْ بُلْبُلٌ مِنْ سَقِيْطِ الطَّلِ يَنْتَفِضُ
تَحِيَّةُ مِنْ أَبِي العَبَّاسِ زَارَ بِهَا ... طَيْفٌ مِنَ العُذْرِ فِي أَثْنَائِهَا يَمِضُ
لَا بِالحُلِيِّ فَتُسْتَوفَى حَقِيْقَتُهُ ... ويُسْتَبَانُ بِعَينٍ مَا بِهَا غَمَضُ
لَكِنْ أَغُضُّ عَلَيهَا جَفْنَ ذِي مِقَةٍ ... كَمَا يَسُدُّ مَسَدَّ الجَوْهَرِ العَرْضُ
نَاشَدْتُكَ اللهَ والإِنْصَافُ مَكْرُمَةٌ ... إِلَّا عِتَابَ مُحِبٍّ لَيْسَ يَمْتَعِضُ
هَبِ المَزَارُ لِمَعْنَى الرَّيْبِ مُرْتَفِعٌ ... أَمَّا الوَفَاءُ بِحُسنِ العَهْدِ مُفْتَرَضُ
أَمَا لكُلِّ نَبِيْهٍ فِي العُلَى حِيَلٌ ... مَا للوِدَادِ بِظَهْرِ الغَيْبِ مُنْخَفِضُ
كُنْ كَمَا شِئْتَ فَمِنْ ذَاتِي مُحَافِظَةٌ ... يَقْضِي الحُقُوقَ بِهَا والمَرْءُ مُنْقَبِضُ

(١) قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ج١، ص ٣٨٨، ص ٣٨٩.

وَهِمَّةٍ لَمْ تَضِــقْ ذَرْعًــا بِحَادِثَــةٍ إِنَّ الكَرِيْمَ عَلَى العِلَّــاتِ يَنْــتَهِضُ
والحُرُّ حُرٌّ، وَصُــنْعُ اللهِ مُنْتَظَــرٌ وَالذِّكْرُ يَبْقَى وَعُمْرُ المَرْءِ مُنْقَرِضُ[1]

وكان هذا العتاب قد أتى بعد اعتذار أبي العباس أحمد من الفتح بن خاقان الذي كلمه بشأن الوزير أبي محمد، فقال لهما من نظمه معتذرًا:

وَاحَسْرَتَا لِصَدِيْقٍ مَا لَــهُ عِــوَضٌ إِنْ قُلْتُ مَنْ هُوَ لَا يَلْقَاكَ مُعْتَرِضُ
أَلْقَاهُ بِالنَّفْسِ لَا بِالْجِسْمِ مِنْ حَــذَرٍ لِعِلَّةٍ مَا، رَأَيْتُ الحُرَّ يَنْقَــبِضُ[2]

لقد بين أحمد بن علي وجود علة مانعة من استقبال الــوزير أبــي محمد، وهي خوفه من أمير المسلمين، مما جعلــه ينقــبض عنــه، علــى اعترافه بذكره وبقاء شيء من مودته في النفس. أما لقاء الأجساد فيحاذر منه؛ خشية بلوغ الأمر لعلي بن يوسف بن تاشفين، مع تأكيد أبي العبــاس أن الوزير ابن القاسم صديق ليس له عوض ولا بديل.

لم يجد عذر أبي العباس أحمد قبولًا في نفس الوزير صديقه القديم، وصاحب الفضل عليه، وإن حاول أن يخفف في بعض أبيات قصيدته حــدة رده عليه إلا أن سخط العاتب بادٍ فيها، بل من مطلع القصيدة الذي يشــبه فيه أبو محمد بن القاسم انقباض أحمد بن علي عنه بانقباض شر الجياد إذا أجريت في ميدان السباق، ثم ينوه بورود عذره عليه، ولكنه عــذر غيــر واضح، لم تستوفَ حقيقته، وكأن الوزير لا يقول بقبوله، ولكنه يغض عنه بطرف المحب، الذي يعز عليه معاتبته، إلا عتاب غير الغضبان الممــتعض

(١) قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ج١، ص ٣٨٩.
(٢) السابق، ج١، ص ٣٨٩.

منه. ولأن الوزير كان ينشد من أحمد بن علي الوفاء على يد كانت له عليه، يسائله بالله، وما اعتاده من الإنصاف بأن الوفاء عهد وفريضة لا بد من أدائها والوفاء بها، ثم ينتقل الشاعر بأسلوب حجاجي يوهي من حجة أبي العباس وحذره من وجد أمير المسلمين عليه، بتذكيره أن الود والوصل، وحقوق ذوي الفضل، يؤديها النبيه خفية إن هو أراد ذلك. وليبين ابن القاسم امتعاضه الشديد من صنع أبي العباس وانقباضه عنه بختم قصيدته بالفخر بنفسه، وأنه حافظ للذمام، وتعتريه همة لم تضق يومًا بحادثة، وهو الكريم الذي لا توقعه العلات، فلطالما نهض منها ولم تسلبه شيئًا. ويضيف المعاتب حكمة تشي بمدى استيائه من مقابلة صديقه له، ويذكره أن عمر الإنسان منقرض فان، ولا يبقى للحر من الدنيا سوى الأحاديث والذكر.

وبهذا الحديث نكون قد أنهينا كلامنا عن الشعر الذي قيل في أسرة بني عشرة، وكانوا هم محوره ولبه الذي قام عليه، ولكي نوفي الشعر حقه، فإنه يتوجب علينا أن نعيد قراءته من جديد، لا لاستجلاء صورة العشريين منه، وإنما للنظر في مقدمات القصائد التي قدمت لهم؛ إذ بدا لي حمل هذه المقدمات لعدد من الأفكار تتناسب ومضامين الشعر الذي قيل فيهم. كما أن هذه المقدمات تُظْهِرُ مدى فهم الأسرة العشرية الدقيق للفن الشعري؛ لذا خصصنا المقدمات وأفردنا لها حديثًا خاصًا؛ لكونها جزءًا من الشعر الذي رسم لنا صورة أفراد هذه الأسرة.

مقدمات القصائد:

إن إحاطة شعراء كبار كابن سوار، وابن بقي، وابن حمديس،

والأعمى التطيلي بأسرة بني عشرة، هيأ لأن تكون القصائد التي قيلت فيهم مكتملة فنيًّا؛ إذ لم يكن هؤلاء الشعراء أغمارًا في عالم الشعر، وإنما هم ملوك النظم، وأمراء القصيد، فجاءت قصائدهم في بني عشرة على قدر عالٍ من الجودة، ومن التقيد بسنن الشعراء السابقين، يشهد بذلك حرصهم على المقدمات في أماديحهم لهذه الأسرة. والمقدمة لقصيدة المدح شرط عند بعض النقاد كابن قتيبة الذي رأى ضرورة اشتمال المقدمة على ذكر الديار والآثار، والبكاء والشكوى، ومخاطبة الربع، واستيقاف الرفيق، ثم يصل الشاعر كلامه بالنسيب وشدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عَقَّب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر، وإنضاء الراحلة والبعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، وذِمَامَة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح، ثم قال عن هذه الأجزاء للمقدمة : «وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام، فيقف على منزل عامر، أو يبكي عند مُشَيَّد البنيان...»[(١)].

وقد أخذ جميع الشعراء –الذين اتصلوا ببني عشرة ومدحوهم– التقيد بالبناء الفني للمدحة، من حيث التقديم لها بمقدمة، لكنهم اختلفوا في العناصر المكونة لها؛ إذ لم يلتزموا بها كما جاءت في حديث ابن قتيبة عنها، فطغت بعض الأجزاء على بعض، وساد فيها الغزل في معظم الأحيان

---

(١) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، طبعة دار المعارف، القاهرة، د. ط، د.ت، ج١، ص ٧٤ وما بعدها.

على غيره من أقسام مقدمة قصيدة المديح.

ولعل أول ما يستوقفنا، وقد علمنا أن الغزل هو المسيطر على مقدمات شعر المديح لبني عشرة، هي جُرأة الشاعر على تقديم شعر غزلٍ لأشخاص عرف عنهم التدين والتفقه الذي حازوا به قضاء سلا وصار إليهم سنين طوالًا. هذه المقدمات الغزلية على اختلاف مضامينها توحي بعدم التشدد الديني الذي يرفض قول شاعر؛ لأنه تغزل أو افتتح قصيدته بالغزل، وهذا ما كان عليه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وصحابته الكرام؛ إذ سمعوا من كعب بن زهير قصيدته البردة ومقدمتها غزلية، وعلى هذا سار بنو عشرة في قبولهم واستماعهم للغزل في مقدمة قصائد مدحهم.

لقد نوع الشعراء مضامين غزلهم؛ فجاءت مقدماتهم لتتحدث بكثرة عما يعانيه الشاعر من ألم الفراق، وما يجده من عناء بُعْدِ المحبوبة، من ذلك قول الأعمى التطيلي:

صُدُودٌ مُلِظٌّ أَوْ فِرَاقٌ مُواشِكُ ... لَعَمري لَقَدْ ضَاقَتْ عَلِيَّ المَسَالِكُ
أَتَى دُوْنَ أَسْمَاءَ العِتَابُ وَدُونَنَا ... مَآخِذُ أَحْصَتْهَا النَّوَى وَمَتَارِكُ
وَمَنْ لِي بِهَا والبِيضُ والسُّمْرُ دُونَها ... وَجُرْدُ المَذَاكِي وَالقِلاصُ الرَّوَاتِكُ[1]

ومن ذلك أيضًا قول ابن سوار:

سَارُوا وَحَبْلُ وصَالِهِمْ مَبْتُوتُ ... فَسَلُوا نُجُومَ اللَّيلِ كَيفَ أَبِيْتُ
بَانُوا وَرُوحِي عِنْدَهُمْ وحُشَاشَتِي ... وَتَظُنُّ أَنَّهُمُ مَضَوا وَبَقِيتُ
أَسَفِي عَلَى وَادِي الأَرَاكِ وَإِنَّما ... يَتَأَسَّفُ المَحْزُونُ وهُوَ يَمُوتُ

(١) ديوان الأعمى التطيلي، ص ١١٧.

أَنْحِي عَلَى الأَقْرَاطِ نَاطِقَــةً وَلَــا أَنْحِي عَلَى الخُلْخَالِ وَهْوَ صَمُوتُ[1]

ومن موشحة للأعمى التطيلي قالها في أبي يعقوب يوسف بن علي، يقول في أولها:

كَيْفَ السَّــبيلُ إِلَــى صَبْري وَفِي المعَالِمِ أَشْــجَانُ
وَالرَّكْبُ وَسَطَ الفَلَا بِالخُرَّدِ النَّــوَاعِمِ قَدْ بَــانُوا

أَقْــبَلْنَ يَــومَ الحِمَــى فِي سُنْدُسِيَّاتِ الحُلَــلْ
بــيْضُ مَطَــلِّ الــدِّمَا سُودُ الفُرُوع وَالمُقَلْ
فَيَــا مُعَنَّــىً بِمَــا لَوْ نَالَهَ نَــالَ الأَمَــلْ

دُونَ ذَوَاتِ حُلِــيٍّ تُطِيــفُ بالصَّــوَارِمِ فُرْسَــانُ
أَبْــغِ النَّجَــاةَ وَلَــا يَغْــرُرْكَ بالضَّــرَاغِمِ غِزْلَــانُ

لَــمْ يَــدْرِ شَــيْئًا سِــوَى تَعْذِيبِــهِ لِصَــبِّهْ
وَمَــا شَــكوتُ الهَــوَى إِلَيْــهِ خَــوْفَ عُتْبِــهْ
وَكُنْــتُ قَبْــلَ النَّــوَى مُكْتَتِمًــا حُبِّــهْ

فَعَنْــدَمَا رَحَــلا فَاضَتْ بِدَمْعٍ سَــاجِمٍ أَجْفَــانُ

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨١٨.

أَطْلَعْنَ مِنِّـــي عَلَـــى سِرِّي وَهَـــلْ لِلْهَـــائِمِ كِتْمَـــانُ[1]

إن إبداء الحزن من حبيب رحل أو صَدَّ تقوي فرص حصول الشاعر على جائزةٍ وصِلَةٍ من ممدوحه، وإن كان الأمر متعلقًا بسماحة العشـــريين فهو يؤكد الصلة؛ لذا ردد مادحوهم هذا المعنى، وكـــأنهم يريـــدون أزر أفراد هذه الأسرة فيما حل بهم من مصاب فراق المحبوبة ونأيها.

وقد يصرف الشاعر همه في مقدمته إلى ذكر الديار، وما أصـــابها بعد رحيل ساكنيها من الأحبة، حتى صارت طللًا عبثت به الأنواء والـــريح. وخير من صور ذلك في شعره ابن بقي في قصيدته ليحيى بـــن علـــي؛ إذ يقول:

مَنَازِلٌ لَكِ يَا سَـــلْمَى بِـــذِي ضَـــالِ هَيَّجْنَ لَـــاعِجَ أَوْصَـــابِي وَبِلْبَـــالِي
تَعَاقَرَتْهَـــا اللَّيَـــالِي بَعْـــدَ قَاطِنِهَـــا بِما حَيَـــين لَهَـــا: سَـــافٍ وَهَطَّـــالِ
هُنَّ المَنَـــازِلُ قَـــدْ أَودَتْ مَعَالِمُهَـــا وبُدِّلَتْ مِن بُـــرُودٍ سَـــحْق أَسْـــمَالِ
وَإِنْ عَهِـــدْتَ بِهَـــا الآرَامُ كَامِنَـــةً للهِ مَـــا هَـــاجَنِي رَسْـــمُهَا البَـــالِي
كَالْوَشْمِ فِي أَذْرُعٍ كالوَحِي فِي صُـــحُفٍ كَالحبْلِ في حُلَلٍ، أَفْضَتْ لإِجْلَـــالِ[2]

نتبين من أبيات ابن بقي هـــذا الترســـم لخطـــا قـــدماء الشـــعراء المشارقة، وهو الأندلسي الذي عاش بين الأنهار والأزهار، فإذا بـــه يـــذكر "الضال" ويشبه الطلل بالوشم في اليد، وكلها مما ذكره الشعراء المشـــارقة

(١) ديوان الأعمى التطيلي، ص ٢٩٨.
(٢) ديوان ابن بقي الأندلسي، ص ١٠٣.

من الجاهلية وما تلاها من عصور.

وعند ابن سوار نرى أطلال صاحبته في "يبرين" هذا الموضع الذي لا يخلو ديوان جاهلي من ذكره، فيقول:

رُسُومُ دَارِكِ فِي يَبْـرَيْنَ دَارِسَـةٌ وَفِي الحَشَا لَكِ رَبْعٌ غَيْرُ مُنْدَرِسِ
قِسْ مَا تَشَاءُ تَجِدْ بِي مِثْلَهُ عِوَضًا وَبِالزَّمَانِ الَّذِي وَلَّى فَلَا تَقِسِ[1]

فهذه دلالات على سير الشعراء على النهج المتبع في المقدمة لقصيدة المديح، بل على ترسم خطا الشعراء القدماء بطريقة التعبير عن الديار وتحولها إلى أطلال مع تحديد مواقعها بشكل دقيق؛ لاتصالهم بها وقربها من نفوسهم، وإلا فأين يبرين من أشبونة مسقط رأس ابن سوار، فما أظن أنه رآها ولا مر بها، وإنما تقليد الشعراء السابقين حثه على ذلك.

وقد يذكر ابن سوار الدار الذي أهاج ذكرها البرق، فحن إليها وحنت ركابه إلى زيارتها، ولا يصف الشاعر خرابها، وإنما يُكَنّي بأنها كانت مأهولة، لصاحبته فيها غرس ومورد عذب، ولا يطيق زيارتها الآن، وهي منبت للسدر والضال والأرطى، يقول ابن سوار:

إِلَى ضَوْءِ ذَاكَ البَارِقِ المُتَعَالِي حَنَنْتُ وَحَنَّتْ أَيْنُقِي وَجِمَالِي
تَأَلَّقَ يُزْجِي عَارِضًا مِثْلَ أَدْمُعِي وَيَحْكِي فُؤَادِي حَفْقُهُ المُتَوَالِي
فَلَولَا شِمَالِي فِي زِمَامِ شِمِلَّةٍ لَطَارَتْ إِلَيْهِ فِي صَبًا وَشِمَالِ
إِلَى مَسْقَطِ الغَرْسِ الَّذِي كَانَ غَرْسُهَا بِهِ لَا إِلَى سِدْرٍ هُنَاكَ وَضَالِ
ولَمْ تُنْسِهَا الأَرْطَى رِيَاضٌ تَرُودُهَا لَدَى مَوْرِدٍ عَذْبِ المِيَاهِ زُلَالِ

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨١٤.

وحُبِّـــبَ للإنْسَـــانِ أَوَّلُ مَـــوْطِنٍ وَإِنْ كَانَ في حَاشَاهُ نَاعِمَ بَالِ[1]

وعلى قلة يذكر الشعراء الرحلة في مقدماتهم، وسبب ذلـــك إقامـــة الشعراء في بلاطهم كابن سوار وابن بقي. أما الأعمى التطيلي فتجنب ذكر الرحلة؛ لأنه لم يرحل إلى ممدوحيه من بني عشرة، بل كان يرسل أماديحه لهم من الأندلس؛ لذا نجد الرحلة في شعر ابن حمديس الصـــقلي فقـــط؛ إذ يقول لعلي بن القاسم:

رَكِبْتُ نَوَى جَوَّابَةَ الأَرْضِ لَمْ يَعِشْ لِرَاكِبِهَا عِيْسٌ تَخِبُّ وَلَـــا رَجْـــلُ
أُسَائِلُ عَنْ دَارِ السَّـــمَاحِ وَأَهْلِـــهِ وَلَا دَارَ فِيْهَا لِلسَّمَاحِ وَلَا أَهْلُ[2]

وهذه القصيدة فُقِدَتْ بعض أبياتها، مما يـــوحي بـــأن رحلـــة ابـــن حمديس لزعيم الأسرة العشرية أطول من ذلك، ولكن القصيدة لـــم تصـــلنا كاملة.

وقد تتنوع مضامين المقدمات لتشمل غير الغزل والرحلة ووصـــف الدار؛ فيلم الشاعر بذكر الشيب مثلًا، أو يضرب من الحكمة أبياتًا كما صنع الأعمى التطيلي؛ إذ يقول في مقدمة مدحته لعلي بن القاسم:

تَنَاصُرُ الشَّيبِ في فُوْدَيهِ خِـــذْلَانُ إِنَّ الزيَادَةَ فِي النُّقْصَانِ نُقْصَـــانُ
لَا تَغْتَرِرْ بِعُيـــونٍ يَنْظُـــرُونَ بِهَـــا فَإِنَّمَـــا هِـــيَ أَحْـــدَاقٌ وَأَجْفَـــانُ
كَمْ مُقْلَةٍ ذَهَبَتْ فِي الغَيِّ مَـــذْهَبَهَا بِنَظْرَةٍ هِي شَانٌ أَوْ لَهَـــا شَـــانُ
رَهْنٌ بِأَضْغَاثِ أَحْلَـــامٍ إِذَا هَجَعَـــتْ وَرُبَّما حَلِمَتْ وَالمَـــرْءُ يَقْظَـــانُ

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨٢١.
(٢) ديوان ابن حمديس الصقلي، ص ٥٥٧.

فَانْظُرْ بِعَقْلِــكَ إِنَّ العَــيْنَ كَاذِبَــةٌ ... وَاسَمْع بحِسِّكَ إِنَّ السَمْعَ خَوَّانُ
وَلَا تَقُلْ كُلُّ ذِي عَــيْنٍ لَــهُ نَظَــرٌ ... إِنَّ الرُّعَاةَ تَرَى مَا لَا يَرَى الضَّــانُ
دَعْ الغِنَى لِرِجَــالٍ يَنْصَــبُونَ لَــهُ ... إِنَّ الغِنَى لِفُضُولِ الهَمِّ مَيْــدَانُ[1]

وقد تأتي المقدمة مشتملة على ذم الزمان والشكوى منه؛ حيث يعبر الشاعر عن أوجاعه قبل اتصاله بالعشريين، وهو ما تؤكده أخبار بعضــهم كابن بقي الذي ما سره زمنه قبل اتصاله بيحيى بن علي الذي غير حياتــه من البؤس إلى النعيم، فقال متذكرًا ذلك الزمن:

مَا لِي وللهَمِّ لَيْسَ الهَمُّ مِنْ أَرَبِــي ... أَنَا الغَنِيُّ بِنَفْسِي لَــيْسَ بالمَــالِ
وَقَدْ وَثَقْتُ عَلَى العِلَّاتِ مِنْ زَمَنِي ... أَنْ سَوفَ يَنْسَخُ إِدْبَارِي بِإِقْبَالِي
أَمَا وتِبْرِيزُ يَحْيَى فِي السِّيَادَةِ، لَــا ... بَكَيتُ دَهْرِيَ مِنْ حَــطٍّ وَإِخْمَــالِ
أَلَيْسَ فِي الأَرْضِ للطَّاوِي مَسَارِحُهَا ... مَنْدُوحةٌ بَــيْنَ إِمْلَــالٍ وَإِقْبَــالِ؟
قَالُوا تَغَرَّبْتَ عَنْ أَقْطَــارِ أَنْــدَلُسٍ ... وَمَنْ يُقِيْمُ عَلَى هَوْنٍ وَإِقْلَــالِ؟[2]

وقد يلم الشاعر بذكر الطيف، وهو من المعاني التي طرقها الشعراء كثيرًا، وفيها يتحدثون عن زيارة طيف المحبوبة لهم، وما يبعثه هذا الطيف من أشجان وأحزان، أو آمال ورغبات يتمناها العاشق الصب، من ذلك قول ابن سوار:

بَعَثَتْ إِلَيْكَ مِــنَ البُــرَاقِ خَيَالَهَــا ... فَأَرَاكَ شَــكْلَكَ حَامِلًــا أَشْــكَالَهَا
هَلْ يُنْكِرُ الغَيْــرَانُ مِنِّــي وَقْفَــةً ... وَقَفَتْ أَمَانِيُّ النُّفُــوسِ حِيَالَهَــا

(١) ديوان الأعمى التطيلي، ص ٢٣١.
(٢) ديوان ابن بقي الأندلسي، ص ١٠٤.

فِي لَيْلَةٍ عَبِثَ المَحَــاقُ بِبَــدْرِهَا غَصْبًا فَقَصَّرَ عُمْرَهُ وأَطَالَهَــا[١]

وله من أخرى:

هُمْ بَعَثُوا طَيْفَ الخَيَالِ الَّذِي سَرَى فَعَانَقَ جِسْمًا مِثْلَ طَيْــفِ خَيَــالِ
وَأَقْبَــلَ مِــنْ تِلقَــائِهِمْ فَكَأَنَّــهُ مُغَلَّفَــةٌ أَعْطَافُــهُ بِغَــوالِي[٢]

ولاحظ الدكتور محمد بن شريفة أن الأعمى التطيلي وابن بقي فــي مدحهما ليحيى بن علي لا يتحرجان من ذكر الشراب ووصــف مجالســه، وعلل ذلك بأن هذا الأمير لم يكن كأبيه وأخيه مثقلًا بأعباء خطــة القضــاء وما تفرضه صبغتها الدينية من سمت ووقار وتحوط وتحفظ[٣]، وقد جــاء ذكر الخمر في شعر الشاعرين في مقدمات موشحاتهما، وقصيدة ابن بقــي في مدح يحيى علي. والحق أن ذكر الخمر في شعر الشاعرين له صلة بهما لا بممدوحهما من العشريين؛ حيث تثبت أشعارهم شيئًا من المجون لهمــا، فابن بقي مثلًا يعج ديوانه بالخمريات[٤]، فهو من أغراضه التي أجادها، فلا غضاضة أن يسقط له منها شيء وهو في صدد مدح أفراد هذه الأسرة. أما التطيلي فشعر الخمر يظهر من حين إلى حين في مدائحه وغزلياته، وكثيرًا

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨٢٨.
(٢) السابق، ج٢، ص ٨٢١.
(٣) انظر: أسرة بني عشرة: تطورها التاريخي ودورها الحضاري، ص ١٩٨.
(٤) انظر: ديوان ابن بقي الأندلسي، ص ٧٥، ص ٧٦، ص ١٠٩، ص ١١٧.

ما يُصَدِّرُ به موشحاته[١]، فذكر الخمر له حضور عند ابن بقي والأعمى التطيلي في شعرهما، ولم يخصصاه للعشريين فقط؛ لذا نلمح فيه سرعة الانتقال إلى حديث غيره وهم يمدحون أفراد هذه الأسرة، وكأن الشاعر يريد أن يطيل فيه، فيتذكر أن ممدوحه من أسرة عرفت بتدينها فيجاوزه سريعًا، من ذلك قول ابن بقي:

قَالُوا وَلَمْ يَقُولُوا صَوَابَا
أَفْنَيتَ فِي المُجُونِ الشَّبَابَا
فَقُلْتُ لَوْ نَوَيْتُ مَتَابَا

وَالكَأْسُ فِي يمينِ غَزَالِ وَالصَّوتُ فِي المَثَالِثِ عَالَي لَبَدَا لِي
لَا وَالَّذِي أَمَاتَ وَأَحْيَا
مَا رَاقَ نَاظِرِي غَيرُ يَحْيَى
بِشِيمَةٍ لَهُ وَمُحيَّا[٢]

ومن موشح آخر للأعمى التطيلي، لا يطيل الحديث عن الخمر فيه، فسرعان ما ينْتَقل إلى المدح، ومنه:

وَأَسْكَرَتْهُ مُدَامُ أَجْفَانِي فَمَرَّ بِي صَاحِيًا كَنَشْوَانِ في رَبْرَبِ غِزْلَانِ

(١) انظر: ديوان الأعمى التطيلي، ص ٢٢٥، ص ٢٤٦، ص ٢٥٧، ص ٢٩١، ص ٢٩٢، ص ٣٢٤.
(٢) ديوان ابن بقي الأندلسي، ص ١٦٢.

هَذَا زَمَانُ الرَّبِيْعِ يَـا يَحْيَـى فَاسْقِنِي مِنْ يمَيْنِـكَ العُلْيَـا
مُدَامَـةً مَلَّكَتْنِـي الـدُّنْيا أَمَا تَرَى الأَرْضَ أُلْبِسَتْ وشْيا[1]

ولا نظن هذا القول من الخمر كما زعم الدكتور محمد بن شـريفة، وإنما هي كناية عن النوال والعطاء؛ إذ ليس من المعقول أن يحول الشاعر ممدوحه ساقيًا يسقيه الخمر متى شاء، ويأمره بأَنْ يسقيه، فـلا الممـدوح يرتضي ذلك، ولا الشاعر يسوغ لنفسه ذلك، وقول الشاعر "من يمينك العليا" دليل على أن المراد هو العطاء لا الخمر الحقيقي.

ومما يؤكد أن الشاعر الأندلسي قد اعتاد ذكر الخمر فـي مقـدمات قصائده وموشحاته التي نظمها في هذه الأسرة، ولم يخص بها أحدًا بعينـه من أفرادها، ما قاله الأعمى التطيلي في إحدى موشحاته؛ حيـث اسـتهلها بذكره وأطال الحديث فيه، وذكر من أفراد الأسرة أبا العباس أحمد ويحيـى الذي كناه بأبي بكر، يقول التطيلي:

أَدِرْ لَنَـا أَكْـوَابْ يُنْسَـى بِهَـا وَاسْتَصْـحِبِ كَمَا اقْتَضَى العَهْدُ
الوَجْدُ الجُلَّاسْ
دِنْ بالهَوَى شَـرْعَا مَا عِشْتَ يَا صَـاحِ
وَنَـزِّه السَّـمْعَا عَنْ مَنْطِقِ اللَّاحِـي
فَـالحُكْمُ أَنْ تَسْـعَى إِلَيْـكَ بِـالرَّاحِ

أَنَامِـلُ العُنَّـابْ وَنُقْلُكَ الوَرْدُ حَفَّتْ بصُـدْغَي آسْ يَلْوِيهِمَا الخَدُّ

(١) انظر ديوان الأعمى التطيلي، ص ٢٩٤، ص ٢٩٥.

لِلَّـــــــهِ أَيَّـــــــامُ   دَارَتْ بِهَـــا الخَمْـــرُ
وَصَـــــلٌ وَإِلْمَـــــامُ   وَأَوْجُـــــهٌ زُهْــــرُ
وَالـــرَّوْضُ بَسَّـــامُ   وَقَدْ بَكَـــى القَطْـــرُ

وَنَحْنُ فِي أَحْبَابْ   قَدْ ضَمَّنَا عِقْـدُ   فَيَا أَبَـا العَبَّـاسِ   لَا خَانَكَ السَّعْدُ

خَلِيْفَـــــةٌ مِنْــــكَ   فِيْنَـــا أَبُـــو بَكْـــرِ
نَـــابَ لَنَـــا عَنْـــكَ   فِي النهْي وَالأَمْـــرِ
لَمْ يُبْقِ لِـــيَ ضَـــنكًا   مِنْ نُـــوَبِ الـــدَّهْرِ

فَـــأَنْتُمُ أَرْبَـــابْ   مَا شَيَّدَ المَجْـدُ   وَإِنْ بَلَونَا النَّاسْ   فَهُمْ لَكُمْ ضِدُّ

حَلِيَـــــت الــــدُّنْيَا   مِـــنْ بَعْـدِ تَعْطِيـــلِ
وَجَاءَنَـــا يَحْيَـــى   بَـــيْنَ البَهَالِيْـــلِ
أَغَـــــرُّ بِالعَلْيَــــــا   مِنْ فَوْقِ تَحْجِيـــلِ(١)

وإن كنا ذكرنا معظم هذه الموشحة، فلنبين أمورًا شتى، أولهـــا: أن هذه الموشحة فقط من كل الشعر الذي قيل فيهم نستطيع تصنيفها على أنها خمرية؛ لأن مدح الأسرة توسطها، بينما ابتدأها الشـــاعر وختمهـــا بـــذكر الخمر، وثانيها: أن يحيى بن علي لا يغرد وحيدًا خارج سرب بني عشـــرة

(١) ديوان الأعمى التطيلي، ص ٢٩٢، ص ٢٩٣.

كما زعم الدكتور محمد بن شريفة، وإنما له من الفضائل الدينية والخلقية ما لإخوته؛ لذا قال فيه التطيلي "تاب لنا عنك في النهي والأمر" والنهي والأمر قد يكون في القضاء، وثالثها: أن شعر الخمر الذي قُدِّمَ له في قصائد مدح هذه الأسرة عابر ولا يكاد يذكر، ولا يقاس بغيره من الأغراض التي شملتها مقدمة مدحة بني عشرة كالغزل ونحوه. وأمر آخر نريد إثباته هنا والتأكيد عليه هو تَفَهُّمُ العشريين وبصرهم بمقاصد الشعراء، وطرائق النظم؛ إذ لم يكن خافيًا عليهم أن مقدمات القصائد المادحة ينسجها الشاعر من مكونات قد تتنافى مع تعاليم الدين، ولكنها فنون قولية تضطرم في نفس الشاعر، فيخرج منها المقبول والممنوع، وما يسوغ قوله وما لا يسوغ.

وإذا زدنا التأمل في مقدمات القصائد التي قيلت في أفراد هذه الأسرة، فإننا نجد إلى جوار الخمر يتسرب بعض الغزل الصريح أو المكشوف إليها، وهي لا تقل أهمية من حيث تجاوزها الخطوط الحمراء، التي يندر معها أن تقدم في قصائد يُمْدَحُ بها فقهاء متدينون، من ذلك قول ابن سوار:

فَأَتَتْ تُقَبِّلُنِي فَقُلْتُ لَهَا امْسِكِي ... عَنِّي فَإِنِّي لَا أُقَارِبُ رَاحَا
فَمَضَتْ وَقَدْ أَخْجَلْتُهَا فَتَبَسَّمَتْ ... فَرَأَيْتُ فِي أَرضِ العَقِيقِ أَقَاحَا
حَتَّى إِذَا مَا الرَّوضُ نَبَّهَهُ النَّدَى ... فَتَحَتْ عُيُونًا كَالعُيُونِ مِلَاحَا[1]

وإن اختلف ابن سوار عن ابن بقي والأعمى التطيلي في هذه الأبيات؛ لكونه يرفض مقاربة الراح، فإنه يختلف عنهما بذكر التقبيل

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨٢٩.

والقبل؛ إذ لم يرد في مقدمات قصائدهما وموشحاتهما هذا الأمر.

وقد يصرف ابن سوار همه إلى وصف المرأة في مقدمته، فيصف ملاحة وجهها، وطيب ثغرها، وسواد شعرها، وهو وصف مادي إن استحوذ على الشاعر قد يوصله إلى مفاتن المرأة، وذلك كله لا يتناسب وشخصيات ممدوحيه الوقورة، يقول ابن سوار:

بَدَتْ الغَزَالَةُ وَالغَزَالَــةُ وَجْهُهَــا ... وَتَكَلَّمتْ فَسَــمِعْتُ ظَبيًــا يَــبْغمُ
خَالسْــتُهَا وتَبَسَّــمَتْ فَظَنَنْتُهَــا ... عَنْ مِثْلِ مَا فِي نَحْرِهَــا تتَبَسَّــمُ
فَتَشَابَهَتْ مِنْهَا الثَّلَاثَــةُ أَضْــرُبٍ ... عَقْــدٌ وَثَغْــرٌ طَيِّــبٌ وَتَكَلُّــمُ
لَوْ كَانَ مَرْئِيًا جُمَــانُ حَــدِيْثِهَا ... لَرَأَيْتَ مِنْهُ أَجَــلَّ شَــيءٍ يُــنْظَمُ
وَمَضَتْ تَجُرُّ وَرَاءَهَا شَعْرًا كَمَــا ... أَعْطَاكَ جَانِبَهُ الغُــرَابُ الأَسْــحَمُ
يَمْحُــو مَوَاقِــعَ إِثْرَهَــا فكأَنَّــهُ ... يُخْفِيهِ عَنْ عَينِ الرَّقِيبِ ويَكْــتِمُ
وَالمِسْكُ فَوقَ التُّرَبِ من أَرْدَانِهَا ... خَطٌّ كمَا رُقَم الرِّدَاءُ المُعْلَــمُ[1]

ومن قصيدة أخرى له، قالها في أبي العباس أحمــد، يقــول فــي مقدمتها:

يَا رَاقِدَ اللَّيْــلِ التَّمَــامِ جُفُونُــه ... إِنِّي بِحُبِّــكِ سَــاهِرٌ مَــا أَرْقُــدُ
إِنِّي لَأَرْحَمُ خَصْــرَهُ مِــنْ رِقَــةٍ ... وَأَرِقُّ للغُصْــنَ الَّــذِي يَتَــأَوَّدُ
وَغَدَا يُطَمِّعُنِي الوِصَــالَ تمَنِيًــا ... إِنِّي سَأَهْلِكُ قَبْلَ أَنْ يَدْنُو غَــدُ[2]

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨١٩.
(٢) السابق، ج٢، ص ٨٣٠.

وعلى طريقة امرئ القيس، وعمر بن عبد الله بن أبي ربيعة، يكون وصول ابن سوار إلى صاحبته محفوفًا بالمخاطر والأهوال التي اجتازها، والدماء تسيل من ضرب الأجساد بالسيوف، وطعن الأكباد بالرماح للقاء الحبيبة؛ إذ يقول:

وَأَطْرُقُ الفَتَيَاتِ البِيْضِ لَابِسَةً ... بِيْضَ الجَلَابِيبِ فِي سُودِ الجَلَابِيبِ
وَالقُرْطُ كَالقَلْبِ مِنْ خَوْفٍ وَمِن حَذَرٍ ... كَأَنَّهُ هُوَ فِي خَوْفٍ وَتَعْذِيبِ
لَمْ آتِهَا قَطُّ إِلَّا نَمَّ بِي وَبِهَا ... وَاشٍ مِنَ الحُلْيِ أَو وَاشٍ مِنَ الطِيْبِ
وَلَا انْتَهَيتُ إِلَى أَطْنَابِ قُبَّتِهَا ... إِلَّا عَلَى ظَهْرِ مَطْعُونٍ وَمَضْرُوبِ
بِأَبْيَضٍ بِدَمِ الأَجْسَادِ مُغْتَسِلٌ ... وَأَسْمَرٍ بِدَمِ الأَكْبَادِ مَخْضُوبِ[1]

وبهذا يكون شاعر هذه الأسرة ابن سوار قد افتن في مقدماته، ونوع مضامينها، لتشمل كل ما عرفه الشاعر القديم من فنون غزلية كذكر الديار والدمن، ووصف المرأة والشوق إليها، وذكر تباريح الحب وما يجد الشعراء منه. وإن كنت أظن أن هذا الأخير أليق من غيره إن قيل في مقدمة قصيدة يمدح بها شخص وقور فقيه كأحد أفراد الأسرة العشرية.

وقد تحكي مقدمة القصيدة هواجس الشاعر تجاه ممدوحه؛ فتسفر عن معاناته وألمه، كقول ابن سوار لعلي بن القاسم:

لَعَلَّ إِيَابَ الظَّاعِنِيْنَ قَرِيْبُ ... فَتَرْجِعَ أَيَامُ الحِمَى وتَؤُوبُ
مَغَانِي تَلَاقِيْنَا وَعَهْدُ اجْتِمَاعِنَا ... وَلَيْسَ عَلَيْنَا لِلزَّمَانِ رَقِيْبُ
وَأَيَامُنَا بِيْضُ اللَّيَالِي وَدَهْرُنَا ... مِنَ الحُسْنِ مَا لِلشَّمْسِ فِيْهِ غُرُوبُ

(١) السابق، ج٢، ص ٨٢٣.

بِهَا كَانَ يَدْعُونِي الهَوَى فَأُجِيبُهُ مُطِيْعًا وَأَدْعُو بِــالهَوَى فَيُجِيْــبُ

إلى أن قال:

عَلَى مِثْلِ أَيَامِ الزَّمَانِ الَّذِي مَضَـــى تُشَقّ قُلُوبٌ لَا تُشَـــقُّ جُيُــوبُ[(١)]

ما للشفقة من بد على ابن سوار، ونحن نقرأ أبياته هذه، حتى لنظن أن حياته انتهت بفقد حبيبه الذي يتمنى أن تعود أيامه معه كما كانت. هذه الحسرة في أبيات الشاعر لم نألفها منه، ولم تكن أسلوبًا له فـــي مقدماتـــه التي تحدثنا عنها، فما السر فيها؟ إن هذه القصيدة من القصائد التي قالهـــا ابن سوار بعد مفارقته علي بن القاسم، واستقراره بتلمسان، فهذا الحـــزن المر في أبياته ليس حزنًا على الأنثى المحبوبة، إنما هو حزن على فـــراق علي بن القاسم، والجامع بينهما مرارة البعد وعظيم الخسارة التـــي لقيهـــا الشاعر بفراق هذا السري؛ إذ لا يعدلها في نفس ابن سوار سوى شـــعوره بفقد حبيب وفِرَاقٍ لَهُ قد يكون سببًا في موته.

ويؤكد ابن سوار هذا المعنى مرة أخرى، من تلمسان، ولكنه هـــذه المرة يوجه أبياته لأبي العباس أحمد، فيقول:

عَلَى طُولِ مَا أَبْكِي تُعَـــاتِبُنِي عَتْبَـــا فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَكُونُ لَهَا عُتْبَـــى

سَرَى جَانِبٌ مِنْ جَانِبِ الغَرْبِ خَافِقٌ خُفُوقَ فُؤَادِ الصَّبِ قَدْ فَارقَ الحُبَّا

فَمَا قَنِعَتْ فِي الحَرْبِ بيضٌ صَوَارِمٌ بِأَيْدِي كُمَاةٍ يُكْثِرُونَ بِهَا الضَّرْبَا[(٢)]

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨٢٥، ص ٨٢٦.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٢، ص ٨٣٠.

وبهذا تكون مقدمة القصيدة عند ابن سوار الأشبوني مشبعة بفكرة يريد إظهارها، أو لنقل حاملة لِهَمٍ يريد البوح به؛ فيستحضر لذلك حبه العميق وصبابته العارمة، التي يؤرقها فراق الحبيب، ويحيلها آلامًا وأوجاعًا تقض مضجعه، ثم يجعل من كل ذلك معادلًا لفراق بني عشرة، والتحول من سكنى سلا إلى استقرار بتلمسان فقد معه كل محبب للنفس.

ولعل بما ذكرناه من حديث عن مقدمات القصائد المادحة لأسرة بني عشرة، ما يشي بتنوع المضامين فيها، ويغذي فكرة افتتان جميع الشعراء الذين اتصلوا بالعشريين ببناء قصيدة المديح، وإن كان الغالب عليهم تقليد السابقين من شعراء العربية، مما يفسر احتذاءهم أيضًا بمعاني المدح؛ حيث سيطر الجود والكرم والنسب على معظم أماديحهم. وقد كان الشاعر القديم إذا أنهى مقدمته ذكر جود ممدوحه، وأشاد بكرم نسب آبائه وجدوده، فهذا التلاحم بين المقدمة والمدحة عند الشاعر القديم، هو ما وجدناه عند كل شاعر مَدَحَ بني عشرة.

الخاتمة

الحمد لله الذي أعان وهدى، والصلاة والسلام على عبده الذي اصطفى، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحابته ومن واله وبعد...

فقد انتهى تطوافنا في ربوع أسرة بني عشرة، أسياد مدينة سلا المغربية، ونظرنا لهم بعين الشعراء، فعرفنا جودهم وكرمهم، ورعايتهم للشعر والشعراء، وحبهم للأدب، حتى أصبحوا جاذبين لأهله، يُقْبِلُ عليهم الشعراء والأدباء، وغيرهم من وجهاء المغرب والأندلس في زمانهم يتفيأون ظلالهم، ويسعدون بصحبتهم وجيرتهم، وينالون من برهم وإحسانهم.

وإن كانت دراستي لهم من خلال الشعر الذي قيل فيهم، فإني بفضل من الله قد توصلت إلى نتائج متعددة، أبرزها:

١- يعد الشاعر محمد بن سوار الأشبوني شاعر بلاط بني عشرة دون مدافع؛ إذ أَكْثَرَ من مدحهم، ومعظم شعره فيهم.

٢- مثَّل غرض المديح جانبًا مهمًا من الشعر الذي قيل في هذه الأسرة، فهو الغرض الواضح الذي عرفنا أفراد أسرة بني عشرة ومناقبهم من خلاله، في حين كانت الأغراض الشعرية الأخرى قليلة مقارنة بالمديح، فوجدنا رثاءهم، وعتابهم، وتهانيهم، وذكر فراقهم، ولم نجد مطلقًا شيئًا من الهجاء وُجِّه لهم.

٤- من أبرز خصائص الشعر الذي قيل في بني عشرة تكرار الشعراء معانيهم، في الجود والكرم، والدين والقضاء، والنسب، فتشابهت أقوال الشعراء فيهم.

٥- اعتمد الشعراء اقتباس الآيات القرآنية، وتوظيف الشخصيات التراثية

أسلوبًا يقدمون فيه شعرًا ينال إعجاب أفراد الأسرة العشرية، ويحاكون فيه مكانة ممدوحيهم الدينية والعلمية.

٦- أظهر الشعراء براعتهم ومقدرتهم الشعرية في مقدمات قصائدهم؛ فجعلوها ألوانًا بديعة من الغزل، ووصف الديار، وفراق الأحبة، والخمر، أعانهم في ذلك ذوق بني عشرة المدرك للجمال الفني وما يتطلبه من قول الشعر.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،،

المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيًا: المصادر:

١- الإتحاف الوجيز تاريخ العدوتين، محمد بن علي الدَّكَالي، تحقيق: مصطفى بو شعراء، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، المغرب، ط٢، ١٩٩٦م.

٢- الاستبصار في عجائب الأمصار، لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس، نشر وتعليق: د. سعد زغلول عبد الحميد، طبعة دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، د.ط، د.ت.

٣- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، للشيخ أبي العباس أحمد بن خالد الناصري، تحقيق وتعليق: الأستاذ: جعفر الناصري، والأستاذ: محمد الناصري، طبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، د.ط، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٤- إعتاب الكتاب، لابن الأبار، حققه وعلق عليه وقدم له: د. صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، د.ط، ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م.

٥- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، للعباس بن إبراهيم السملالي، راجعه: عبد الوهاب بن منصور، طبعة المطبعة الملكية، الرباط، ط٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٦- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، للسان الدين بن الخطيب، تحقيق: سيد كسروي حسن، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٧- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، للضبي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، طبعة دار الكتاب المصري، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٨- البيان المغرب في اختصار ملوك الأندلس والمغرب، لأبي العباس أحمد بن محمد بن عذاري، حققه وضبط نصه وعلق عليه: بشار عواد معروف، ومحمود بشار عواد، طبعة دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ١٤٣٤ه - ٢٠١٣م.

٩- تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، لعبد الرحمن بن خلدون، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: الأستاذ: خليل شحادة، طبعة دار الفكر، بيروت، د.ط، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١٠- تاريخ الرسل والملوك، لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف، القاهرة، ط٢، د.ت.

١١- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، لابن عساكر، دراسة وتحقيق: عمر بن غرامة العمروي، طبعة دار الفكر، بيروت، د.ط، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٢- التشوف إلى رجال التصوف، وأخبار أبي العباس السبتي، ليوسف بن يحيى التادلي، تحقيق: أحمد توفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

١٣- ديوان الأعمى التطيلي، جمعه وحققه وشرحه: د. محيي الدين ديب، طبعة المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، ط١، ٢٠١٤م.

١٤- ديوان ابن بقي الأندلسي، جمع ودراسة وإعداد: انتصار خضر الدنان، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

١٥- ديوان ابن حمديس الصقلي، صححه وقدم له: د. إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

١٦- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لعلي بن بسام الشنتريني، تحقيق: د. إحسان عباس، طبعة دار الثقافة، بيروت، د.ط، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

١٧- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، لمحمد بن عبد الملك المراكشي، حققه وعلق عليه: د. إحسان عباس، ود. محمد بن شريفة، ود. بشار عواد معروف، طبعة دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ٢٠١٢م.

١٨- سلا ورباط الفتح: أسطولهما وقرصنتهما الجهادية، لجعفر بن أحمد الناصري، تحقيق: أحمد بن جعفر الناصري، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، د.ط، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١٩- الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، طبعة دار المعارف، القاهرة، د. ط، د.ت.

٢٠- فتوح إفريقيا والأندلس، لعبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، حققه وقدم له: د. عبد الله أنيس الطباع، طبعة دار الكتاب، بيروت، د.ط، ١٩٦٤م.

٢١- فوات الوفيات والذيل عليها، لمحمد بن شاكر الكتبي، تحقيق: د. إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، د.ط، ١٩٧٣م.

٢٢- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، للفتح بن خاقان، حققه وعلق عليه:

د. حسين يوسف خربوش، طبعة مكتبة المنار، الأردن، ط١، ١٤٠٩ه-١٩٨٩م.

٢٣- الكامل في التاريخ، لابن الأثير، تحقيق: عبد الله القاضي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٢٤- لسان العرب، لابن منظور، طبعة دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

٢٥- مختصر خليل، للشيخ خليل بن إسحاق الجندي، ومعه شفاء الغليل في حل مقفل خليل، لمحمد بن أحمد بن غازي العثماني، دراسة وتحقيق: د. أحمد بن عبد الكريم نجيب، طبعة مركز نجيبويه، القاهرة، ط١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٢٦- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس مجموعة من رسائله، للدكتور أحمد مختار العبادي، طبعة مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ط، ١٩٨٣م.

٢٧- من كتاب فتوح البلدان، للبلاذري، اختار النصوص وعلق عليها وقدم لها: د. شوقي أبو خليل، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، د.ط، ١٩٩٧م.

٢٨- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، للسان الدين بن الخطيب، تقديم وتحقيق: د. السعدية فاغية، طبعة مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، د.ط، د.ت.

٢٩- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: د. إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، د.ط، ١٣٨٨ه - ١٩٦٨م.

٣٠- نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري، تحقيق: د. يحيى الشامي،

طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط، د.ت.

٣١- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

ثالثًا: المراجع:

١- تاريخ الأدب العربي: عصر الدول والإمارات الجزائر- المغرب الأقصى- موريتانيا- السودان، للدكتور شوقي ضيف، طبعة دار المعارف، القاهرة، ط١، د.ت.

٢- شعر التهاني في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، للباحث: أحمد محمد الخزاعلة، رسالة ماجستير، مخطوطة، جامعة آل البيت، الأردن، ١٤٢٩ه- ٢٠٠٨م.

٣- مدينة سلا في العصر الإسلامي -دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، للدكتور حمدي عبد المنعم محمد حسين، طبعة مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ط، ١٩٩٣م.

٤- مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح، لأبي عبد الله محمد بوجندار، طبعة مطبعة الأمنية، الرباط، ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٥- وصف إفريقيا، للحسن بن محمد الوزان الفاسي، ترجمه عن الفرنسية: د. محمد حجي، ود. محمد الأخضر، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

رابعًا: المجلات:

١- أسرة بني عشرة: تطورها التاريخي ودورها الحضاري، للدكتور محمد بن شريفة، مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية، جامعة تطوان، العدد العاشر، ١٩٦٥م.

٢- أسرة بني عشرة واستقرارهم بسلا، لسالم أبو القاسم غومة، حوليات آداب عين شمس، المجلد٣٩، ٢٠١١م.

٣- تاريخ العدوتين مشترك أو منفصل، لعز المغرب معنينو، مجلة اليقين، المغرب، العدد ٢، ٢٠١١م.